تزكية النفوس

للقرب من الملك القدوس

لفضيلة الداعية الإسلامي

محمد عبد الملك الزغبي

مؤلف برابطة العالم الإسلامي برقم (٤٩٣ / ب)

عضو العلاقات العامة العربيــة بـرقم (١١٦٦)

دراسات عليـا بالدراسـات الإسـلاميـة

راجعه فضيلة الشيخ

حـمـدي صبـــح

مكتبة الإيمان - المنصورة

مكتبة الإيمان - المنصورة

أمام جامعة الأزهر

ت: ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ،ونتوب إليه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آلعمران: ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب: ٧٠ ، ٧١].

أما بعد : فهذا كتاب قد جمعته من بطون الكتب قديمها وحديثها وأسميته «**تزكية النفوس للقرب من الملك القدوس** » وقد جعلته نبراسًا لكل ذي عقل وبصيرة ، لينير لهم الطريق ، ويرشدهم إلى الفوز المبين ، والصراط المستقيم ليفوزوا بالنظر إلى رب العالمين ، وإن هذا الكتاب موجه إلى كل النفوس ، رديئها ونقيها ، حقيرها وعظيمها ، ليكون تثبيتًا للصالحين ، وحجة على العاصين المخالفين لرب العالمين .

ولقد كتبت هذا الكتاب حينما رأيت ما يحدث للصحوة الإسلامية من وهن، وضعف ، وتشتت ، وتشرذم ، ومما زاد الطين بلة ، ضياع السواد الأعظم في

سوق الحياة ، ما بين طالب لمال ، وطالب لجاه ، وطالب لسلطان ، وطالب لشهوة ما ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصدق الشافعي حينما قال:

ومن يذق طعم الحياة فإني خبرتها وسيق إلى عذبها وعذابها

فلم أرها إلا جيفة مستجبلة عليها كلاب همهن اجتذابها

فإن تجتنبها عشت سلما لأهلها وإن تجتذبها ناهشتك كلابها

وإن الأمة قد ضاعت حينما نست سيرة سلفها الصالح ، وما قدموه للإسلام والمسلمين ، فإن الأمة قد نسيت ، وربما تناست الصديق أبا بكر ، والفاروق عمر ابن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وصلاح الدين !!

وصدق القائل إذ يقول :

سلامًا صلاح الدين يا خير قائد بأمجاده تاج الفتوح تزينا

سلامًا صلاح الدين إنا بحاجة لمثلك من يعلى على الحق صرحنا

هل نسينا بيت المقدس ؟ هل نسينا القدس ؟ أرسل شاب من أهل دمشق - كان مأسورا في بيت المقدس - رقعة إلى صلاح الدين ، فيها هذه الأبيات:

يا أيها الملك الذي لمعالم الصلبان نكّس

جاءت إليك ظلامة تسعى من البيت المقدس

كل المساجد طهرت وأنا على شرفي مُنجَّس

فما كان من صلاح الدين إلا أن استجاب لنداء القدس ، استجاب لصراخ القدس الذي يعلو على ضحكات اليهود والمجرمين ، فدارت حطين وقتل فيها من الصليبيين ما يقرب من ثلاثين ألفا ، وأسر أكثر من ثلاثين ألفا، حتى باع أحد الرجال أسيرًا له بحذاء ، فقيل له في ذلك فقال : أردت أن يقال : بلغ من كثرتهم وهوانهم أن بيع واحد منهم بزربول (حذاء) .

هل من صلاح يعيد السيف في يدنا — أو تبتروها فقد شُلَّت أيادينا ؟
هل من صلاح يداوي جرح أمته — ويطلع الصبح نارا من ليالينا ؟
هل من صلاح لشعب هَدَّه أمل — ما زال رغم عناد الجرح يشفينا ؟
جرحي عنيد وجرحي أنت يا وطني — جئنا نداويك وتأبى أن تداوينا
إني أرى القدس في عينيك ساجدة — تبكي عليك وأنت الآن تبكينا
ما زال في العين طيف القدس يجمعنا — لا الحلم مات ولا الأحزان تنسينا

وها هو البطوش الغشوم « غورو » يقف أمام قبر صلاح الدين ، ويركله بقدمه قائلا : «ها قد عدنا يا صلاح الدين » !!!

أعيدي صدى «غورو» ووقفة فاجر — جبان وزيف المجد والدعوات
وقفت على قبر يضم جداره — جلال حياة في جلال ممات
أراعك هذا القبر أم راعك الذي — يضم من الأحداث والوقعات
أم حسبت الذي في القبر ميتا وإنه — شهيـد مضى لله في ثبـــات

هكذا أصبح المسلمون أذلة على الكفار ، أعزة على بعضهم البعض ، لم يعد في الأمة رجال مثل هؤلاء . عجزت الأمة أن تتمخض عن بطل مثل صلاح الدين، ولكنها تمخضت عن كل كذاب أشر ، فخرج علينا المغفلون والراقصون ، والفاسقون ، وعبدة الشياطين . . . وهلم جرا .

قال الأصمعي : لما صافّ قتيبة بن مسلم للترك وهاله أمرهم سأل عن محمد ابن واسع فقيل : « هو ذاك في الميمنة جامع على قوسه ، يبصبص بأصبعه نحو السماء . قال : تلك الأصبع أحب إليّ من ألف سيف شهير ، وشاب طرير » .

وها هو الشيخ العز بن عبد السلام ، كان إذا قرأ القارئ عليه من كتاب، وانتهى إلى آخر باب من أبوابه لا يقف عليه ، بل يأمره أن يقرأ من الباب الذي بعده ولو سطرًا ، ويقول : « ما أشتهى أن أكون ممن يقف على الأبواب » . . . .

وإني أخشى أن يصدق فينا قول القائل :

..... زماننا أضحوا لصوصًا عموما في البرية لا خصوصا
أباحوا أكل أموال اليتامى كأنهم رأوا في ذا نصوصا
ولو أمروا بقسمة ألف ثوب لما أعطوا لعريان قميصا
ولو عند التحية صافحونا لسلوا من أصابعنا الفصوصا
فدعني يا أخي من أناس أباعوا دينهم بيعا رخيصا

وقد وضحنا في هذا الكتاب سير سلفنا الصالح ، حتى نحذو حذوهم ، ونسلك سبيلهم ونتمثل أخلاقهم ، فما كان في الكتاب من صواب فمن الله وحده فهو المحمود والمستعان ، وما كان فيه من خطأ فمن مصنفه ومن الشيطان، والله بريء منه ورسوله .

والله المسؤول أن يجعله خالصا لوجهه مدينا من رضاه ، وأن ينفع به مؤلفه وقارئه إنه سميع الدعاء وأهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وإني وإن كنت لست أهلا للتأليف لكن تطفلت على باب الفتاح اللطيف، وتشبهت بأهل الصلاح لأن التشبه بالكرام فلاح ، وتمثلت بقول الشاعر :

أسير خلف ركاب القوم ذا عرج مؤملا جبر ما لاقيت من عوج
فإن لحقت بهم من بعد ما سبقوا فكم لرب السما في الناس من فرج
وإن ظللت بقفر الأرض منقطعًا فما على أعرج في ذاك من حرج



الفصل الأول

تعريف التزكية وبيان أقسامها

الفصل الأول

تعريف التزكية وبيان أقسامها

تمهيـــــد :

قبل أن نشمر السواعد ، وقبل أن نتوغل في أغوار هذا الموضوع ، لابد من تعريف الأصل ، لأن أصل كل بلية لا يخلو من هذين :

أ ـ الجهل .

ب ـ الظلم أو العناد .

يقول الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ : « . . . وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح ، ومن وصفه الجهل والظلم لا مطمع في استقامته واعتداله البتة . فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل ، والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم . . . » [(١)] . ا . هـ.

ولاشك ولا مراء في أن العلم مقدم على القول والعمل . ولقد كان إمامنا البخاري بغاية الحصافة حيث صنف بابا وسماه : « باب العلم قبل القول والعمل » .

يقول الشيخ عبد الرحمن الحنبلي[(٢)] : « ترجم رحمه الله بالبداءة بالعلم؛ لأن تعلم العلم الفرض مقدم على القول والعمل ، وذلك أن قول المرء وعمله لا يصلح إذا إذا صدر عن علم . وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قال

---

(١) انظر « مدارج السالكين » (١/ ٢٤٢) للإمام ابن قيم الجوزية . ط. دار الحديث .

(٢) انظر « حاشية الأصول الثلاثة » (ص ١٨، ١٩) ط. الإدارة العامة للطبع والترجمة . الرياض .

رسول الله ﷺ : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » [(١)] . وقد قيل :

وكل من بغير علم يعمل　　أعماله مردودة لا تقبل

وهل يمكن عبادة الله التي هي حقه على خلقه وخلقهم لها إلا بالعلم. ا.هـ.

والدليل قوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [محمد: ١٩] والواضح والجلي من هذه الآية أن الله أمر نبيه ﷺ بأمرين : بالعلم ثم العمل . والمبدوء به العلم في قوله : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ ثم أعقبه بالعمل في قوله : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ فدل على أن مرتبة العلم مقدمة على مرتبة العمل. وأن العلم شرط في صحة القول والعمل ، فلا يعتبر إلا به ، فهو مقدم عليهما ، لأنه مصحح النية المصححة للعمل .

وقال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل ما عُصِيَ الله به فهو جهالة .

وقال علي ـ رضي الله عنه ـ : كفى بالعلم شرفًا أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح به إذا نُسب إليه ، وكفى بالجهل ذمًا أن يتبرأ منه من هو فيه [(٢)] .

وإننا لا نعدو الصواب إذا قلنا : أن دواء الجهل هو السؤال ، كما أشار إلى ذلك النبي ﷺ في قوله : « فإنما شفاء العيِّ السؤال » [(٣)] فنبه الرسول ﷺ على أن الجهل داء وشفاءه في التعلم والسؤال .

(١) الحديث صحيح : أخرجه البخاري في « صحيحه » (٥/ ٢٢١) ،ومسلم في «صحيحه» (١٧١٨) ،وابن ماجه (١٤) ، وأبو داود (٤٦٠٦) ، وأحمد في «المسند» (٦/ ٢٧٠) . قال ابن علان : من أحدث في الإسلام ما ليس من الإسلام في شيء ،ولم يشهد له أصل من أصوله فهو مردود .

(٢) انظر « مدارج السالكين » (١/ ٤٧٠) .

(٣) الحديث حسن إن شاء الله : أخرجه ابن ماجه ـ الطهارة ـ (٤٦٤) ، وأبو داود ـ الطهارة ـ (٣٣٢) ، وأحمد في « المسند » (١/ ٣٨٠)، وصححه الشيخ الألباني وانظر «الإرواء » (١٠٥) و « صحيح سنن أبي داود » (٣٦٤) ، و «صحيح الجامع» =

وإن التنويه السابق لم يكن عفويًا ، بل كان عمدًا ، حتى نضع في الحسبان ما ترمي إليه الكلمات من البيان ، وحتى لا نصبح في شك بعد الأمان . فنقول وبالله التوفيق :

تعريف التزكية :

وهي من الفعل « زكا » الشيء ـ زُكُوا ، وزكاءً ، وزكاة أي نما وزاد .

وزكا فلان : بمعنى طُهر وصلح .

وزكا نفسه : أي مدحها كما جاء في قوله تعالى : ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

وزكى الشهود : أي عدّلهم ، ومنه : تزكية المرشح لعمل ما .

وزكى ماله : أي زكاته [١] .

ونخرج من هذا بأن « تزكية النفس » أي تعديلها وإقامتها على الطريق المستقيم ، والنور المبين وإخراجها من بوتقة الابتداع إلى ساحة الاتباع .

ويقول الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ في هذا المضمار عن النفس: «منها أن يعرف أنها جاهلة ظالمة .وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول قبيح . . . فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يقيها شرها. وأن يؤتيها تقواها ويزكيها ، فهو خير من زكاها ، فإنه ربها ومولاها، وأن لا يكله إليها طرفة عين . فإنه إن وكله إليها هلك . فما هلك من هلك إلا حيث وُكل إلى نفسه » [٢] .ا.هـ .

وفي خطبة الحاجة : « الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ

= برقمي (٤٣٦٢) و(٤٣٦٣)،وله لفظ آخر بزيادة فيه « **إنما كان يكفيه** . . . . » وهذا الحديث بهذه الزيادة ضعيف ، وراجع « ضعيف الجامع » (٤٠٧٤) .

(١) انظر « المعجم الوجيز » (ص/ ٢٩٠) ط. مجمع اللغة العربية .

(٢) انظر « مدارج السالكين » للإمام ابن القيم (١/ ٢٤٢) ط. دار الحديث .

بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . . . »[١] .

ويقول محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي : « زكا » : زكاة المال معروفة ، وزكى ماله تزكية أدى عنه زكاته وزكى نفسه أيضا : مدحها . وقوله تعالى ﴿ **وتزكيهم بها** ﴾ قالوا : تطهرهم بها . وزكاه أيضا ، أخذ زكاته وتزكي : تصدق[٢] .ا.هـ .

بمعنى آخر ، فإن تزكية النفس : تنقيتها من كافة الشوائب العالقة ، سواء كانت شوائب عقائدية ، أو شوائب عملية ، أو شوائب أخلاقية ، لتربو هذه النفس وتخرج من حيز النفس الأمارة بالسوء حتى تصل إلى مضمار النفس المطمئنة .

أنواع التزكية :

ونستطيع أن نخرج من الاستقراء ، بأن التزكية يمكن أن تُقسم طبقا للمزكي إلى أربعة أقسام ، وهذه الأقسام تتضح جلية من نصوص الكتاب العزيز ، وهي كالتالي :

الصنف الأول : تزكية الرب للعبد .

الصنف الثاني : تزكية الرسول ﷺ [وليس مرادنا المدح] .

الصنف الثالث : تزكية العبد لنفسه .

الصنف الرابع : تزكية العبد للعبد .

---

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري في « صحيحه » (٥/ ٢٢١) ، ومسلم في «صحيحه » (١٧١٨) ، وأحمد في « المسند » (٦/ ٢٠٧) ، وأبو داود (٤١٠٦)، وابن ماجه (١٤) ولنا كلام جيد في كتابنا « تحفة العروس » (ص/ ٦٠٥) ط. مكتبة الإيمان .

(٢) انظر « مختار الصحاح » (ص/ ٤٩٠) ط. المطبعة الأميرية ببولاق مصر ١٣١٧ هـ.

الصنف الأول : تزكية الرب للعبد :

مما لاشك فيه ، أن هذا الصنف هو أجلها وأعظمها على الإطلاق ، ولا نستطيع أن نجادل في ذلك ولا جرم ، إذا قلنا أن الأصناف الثلاثة ما هي إلا امتداد للصنف الأول ، وما كانت هذه الأصناف كلها إلا بوجود الصنف الأول.

* حُكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : ما تصنع بالشيطان إذا سوّل لك الخطايا ؟ قال : أجاهده ، قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده ، قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده . قال : هذا يطول عليك أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها أو منعك من العبور ما تصنع ؟ قال : أكابده أو أرده جهدي . قال : هذا يطول عليك ، ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك [١] .

ولله المثل الأعلى ، فإن هذه الأصناف تنبثق من الصنف الأول .

ولله در مطرّف حيث قال : نظرت فإذا ابن آدم مُلقى بين يدي الله عز وجل وبين إبليس ، فمن شاء أن يعصمه عصمه ، وإن تركه ذهب إبليس[٢].

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢١].

ويقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩].

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤].

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ .

---

(١) انظر « تلبيس إبليس » للإمام ابن الجوزي (ص/ ٥٧) ط. مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة.

(٢) انظر المرجع السابق .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ : أي لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ويزكي النفوس من شركها ، وفجورها ودنسها ، وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه ، لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيرا . ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ﴾ أي من خلقه ، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي. وقوله: ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أي سميع لأقوال عباده ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال [١] .ا.هـ .

ويقول الزمخشري ـ رحمه الله ـ : ولولا أن الله تفضل عليكم بالتوبة الممحصة لما طهر منكم أحدًا آخر الدهر من دنس إثم الإفك ، ولكن الله يطهر التائبين بقبول توبتهم إذا محضوها وهو سميع بقولهم عليم بضمائرهم وإخلاصهم [٢] .

ويقول الشيخ أحمد الصاوي المالكي : هذا يفيد أنهم تابوا وطهروا وهم كذلك ، إلا عبد الله بن أُبي فإنه استمر على النفاق حتى هلك كافرا [٣] .

ويقول الزمخشري في موضع آخر في قوله تعالى : ﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ إعلام بأن تزكية الله هي التي يُعتد بها ، لا تزكية غيره لأنه هو العالم بمن هو أصل للتزكية . ومعنى يزكي من يشاء يزكي المرتضين من عباده الذين عرف منهم الزكاء فوصف به . . . [٤] .

ويقول الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ : وذلك لأن الله غضبان عليهم لأنهم كتموا

---

(١) انظر « تفسير ابن كثير » (٥/ ٧٤ ، ٧٥) ط. دار الأندلس . بيروت .

(٢) انظر « الكشاف » (٣/ ٦٦ ، ٦٧) ط. المكتبة التجارية الكبرى . ونقله عنه الإمام النسفي في « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » (٣/ ١٠٥) ط. الحسينية .

(٣) انظر « حاشية أحمد الصاوي على الجلالين » (٣/ ١٠٢) ط. المطبعة الأميرية .

(٤) انظر « الكشاف » (٣/ ٢٧٣ ، ٢٧٤) ط. المكتبة التجارية الكبرى .

وقد علموا فاستحقوا الغضب فلا ينظر إليهم ولا يزكيهم أي يثني عليهم ويمدحهم بل يعذبهم عذابًا أليما .

والذي نستطيع الخروج به من أقوال الأئمة، والذي نراه أن تعريف الإمام ابن كثير أكثر شمولية فلقد جمع بين دفتي التعريف ما حوى وكفى ،ولذلك نستطيع القول بأن :

تزكية الله :

تتمثل في قبول التوبة والرجوع إليه ، وتزكية النفوس من شركها وفجورها ودنسها ، وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه.

ومن حديث زيد بن أرقم ، قال رسول الله ﷺ: « **اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها ، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يُستجاب لها**»[١] .

قال عكرمة : أفلحت نفس زكاها الله وخابت نفس أغواها الله [٢] .

عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : سمعت ابنتي برة فقالت لي زينب بنت أبي سلمة : إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم وسميت برة ، فقال رسول الله ﷺ : « **لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم** » فقالوا : بم نسميها ؟ قال : «**سموها زينب** » [٣] .

عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : أثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ فقال : « **ويلك قطعت عنق صاحبك قطعت عنق صاحبك** » مرارًا . ثم

---

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه مسلم في « صحيحه » (٢٧٢٢) ، والنسائي (٨/ ٢٦٠) ، والترمذي (٣٥٦٧) ، وفي « الرياض » برقم (١٤٧٩) بتحقيقي ـ لم يطبع بعد .

(٢) انظر « تفسير النسفي » (٤/ ٢٩٦).

(٣) **الحديث صحيح** : أخرجه مسلم مختصرا (١٤٠٧) ، وأبو داود ، وأورده الشيخ الألباني في « السلسلة الصحيحة » برقم (٢١٠) وفي « صحيح الجامع » برقم (٧٢٩٧) .

قال: « من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة فليقل أحسب فلانا والله حسيبه ولا أزكي على الله أحدًا أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه » [١] .

الصنف الثاني : تزكية الرسول ﷺ :

يقول تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١].

ويقول تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

ويقول تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ويقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

يقول الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ : يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم عليهم من بعثه الرسول محمدا ﷺ يتلو عليهم آيات الله مبينات ، ويزكيهم : أي يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس ، وأفعال الجاهلية ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويعلمهم الكتاب وهو القرآن ، والحكمة وهي السنة ، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفهون بالعقول الغراء فانتقلوا ببركة رسالته ، ويُمن سفارته ، إلى حال الأولياء ، وسجايا العلماء . فصاروا أعمق الناس علما وأبرهم قلوبا ، وأقلهم تكلفا، وأصدقهم لهجة [٢] .

---

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري في « صحيحه » (١٠/ ٥٥٢) و(٦١٦٢) ، ومسلم في « صحيحه » (٤/ ٢٢٩٦) و(٦٥/ ٣٠٠٠) ، وأبو داود في « سننه » والنسائي وأحمد في « مسنده » وراجع « الرياض » برقم (١٧٨٩) بتحقيقي .

(٢) انظر : « تفسير ابن كثير » (١/ ١٩٥ ، ١٩٦) ط. دار الغد العربي .

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في موضع آخر : ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن عبد الله بن عباس يعني : طاعة الله والإخلاص [(١)] .

وقال الزمخشري ـ رحمه الله ـ : ﴿ يُزَكِّيهِمْ ﴾ أي يطهرهم من الشرك وخبائث الجاهلية [(٢)] .

ويقول الشيخ أحمد الصاوي المالكي : ﴿ يُزَكِّيهِمْ ﴾ أي يطهرهم من الشرك، بمعنى يزيل عنهم الشبه وفساد العقيدة حتى يصيروا أزكياء [(٣)] .

أما « الحكمة » في الآيات السابقة فهي بمعنى السنة على أرجح الأقوال وأصحها ، وإلى ذلك ذهب قتادة ـ رحمه الله ـ [(٤)] .

ولاشك أن من خالف سنة الرسول ﷺ تنتفي عنه ميزة التزكية منه ﷺ على هذا المخالف ، والأحاديث جمة في هذا الأمر :

* فمن حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ، قال : « **أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي وإنه من يعش منكم سيرى اختلافًا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة** » [(٥)] .

---

(١) انظر : « تفسير ابن كثير » (١/ ١٨٤) ط. دار الغد العربي .

(٢) انظر : « الكشاف » وانظر « تفسير النسفي » (٤/ ١٩٢ ، ١٩٣).

(٣) انظر « حاشية الصاوي على الجلالين » (٤/ ١٦٠ ، ١٦١) ط. المطبعة التجارية .

(٤) هذا الأثر أخرجه البخاري معلقا (٨/ ٣٩٩) ،ووصله ابن أبي حاتم من طريق معمر عنه بلفظ : من آيات الله والحكمة : القرآن والسنة . وقال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ فذكر الله الكتاب هو القرآن وذكر الحكمة ، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله . انظر الرسالة (ص/ ٧٨) .

(٥) **الحديث صحيح** : أخرجه أبو داود في « سننه » (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٨) =

* وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به** » (١) .

* ومن حديث جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبّهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي** » (٢) .

ولكن لابد من وقفة لنا هنا لكي نعرف ، ما هو الفرق بين تزكية الله سبحانه وتعالى وتزكية الخليل (٣) محمد ﷺ ؟.

لا جرم إذا قلنا أن تزكية الله هي أعلى من سواها على الإطلاق ، وهي التزكية العظمى من أصابته فاز ونجا من البوار والخزي ، أما من لم تصبه فهو في الآثمين المبعدين عن جنة رب العالمين والعياذ بالله .

= وقال : حديث حسن صحيح ، وأحمد في « المسند » (٤/ ١٢٦ ، ١٢٧) ،وابن حبان في «صحيحه» (١٠٢) ، وابن ماجه (٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤) والإمام الدارمي (١/ ٤٤، ٤٥) وفي الرياض برقم (١٥٧) بتحقيقي .

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري في « صحيحه » (١/ ١٦٠ ، ١٦١) والإمام مسلم في «صحيحه» (٢٢٨٢) واللفظ هنا لمسلم وفَقُهَ بضم القاف على المشهور وقيل كسرها أي صار فقيها ، قاله النووي « الرياض » (ص/ ٨٦) .

(٢) **الحديث صحيح** : أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٢٨٥) والإمام أحمد في «المسند»(٣/ ٣٦١، ٣٩٢) و« الجنادب » نحو الجراد والفراش هذا هو المعروف الذي يقع في النار . و « الحُجز » جمع حجزة وهي معقد الإزار والسراويل . قاله النووي (ص/ ٨٦ ـ ٨٨).

(٣) قد يجهل الجم الكثير والنفر الغفير أن رسول الله ﷺ خليل كما أن إبراهيم عليه السلام خليل والرسول قد اتصف بالخلة لسببين : =

ونستطيع أن نميز الفرق بينهما عن طريق الاستقراء والقياس ، ولا شبهة في ذلك البتة .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ ، ٢].

وقوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فالناظر في هاتين الآيتين ،يجد أن الله يصف القرآن العظيم بأنه ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ في الآية الأولى ، ثم يصفه بأنه ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ فكيف يمكن التوفيق بينهما ؟

ونقول وبالله التوفيق ، أن الهداية تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : هداية ورشاد وبيان .

القسم الثاني : هداية توفيق .

= **السبب الأول** : لورود نصوص السنة الصحيحة بذلك ، يقول ﷺ : « **لو كنت متخذاً خليلا لاتخذت ابن أبي قحافة خليلا ولكن صاحبكم خليـل الله** » أخرجه مسلم من رواية ابن مسعود (٧/ ١٩) وفي شرح الطحاوية (٣٣٤) .وجاء بلفظ آخر : «**لو كنت متخذاً من أمتي خليلا دون ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن أخي وصاحبي** » أخرج هذا الحديث الإمام البخاري وأحمد في مسنده من رواية ابن الزبير ، والبخاري أيضا من رواية ابن عباس . وجاء بلفظ ثالث « **لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكنه أخي وصاحبي ، وقد اتخذ الله صاحبكم خليلا** » أخرجه مسلم (٧/ ١٠٨) من رواية ابن مسعود .

السبب الثاني : أن « الخلة » هي أعلى درجات المحبة يُعرفها ابن قيم الجوزية : هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه ، حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني ولذا سمي الخليل خليـــلا

ويقول أيضا ابن القيم : «مرتبة الخلة » التي انفرد بها الخليلان ـ إبراهيم ومحمد ﷺ ـ وذكر الأحاديث الصحيحة ثم قال : والحديثان في الصحيح وهما يبطلان قول من قال «الخلة» لإبراهيم و« المحبة » لمحمد . ا.هـ انظر مدارج السالكين (٣/ ٣١، ٣٢) ط.ـ=

وانطلاقا من هذا ، فإن الآية الأولى ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ هي هداية توفيق ، أما الآية الثانية ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ هداية إرشاد ، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى، قد أنزل القرآن للناس كافة والجن كذلك ، وبين في القرآن الطرق المؤدية لدخول الجنة، والطرق المؤدية لدخول النار ، ومن هذا المنطلق فإن القرآن الكريم هداية لكافة الخليقة من إنس وجن لأن فيه بيان وإرشاد يقول تعالى : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

أي طريقي الخير والشر المفضيين إلى الجنة والنار وقيل الثديين (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣].

أما الآية الأولى فالمقصود بها هي هداية التوفيق ، لأن الله سبحانه وتعالى وفقه إلى سلوك السبيل المستقيم . وهذه هي أجل أنواع الهداية ، ويقول تعالى : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

ويقول تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١].

ولنرجع إلى ما كنا بصدده ألا وهو : ما الفرق بين تزكية الله سبحانه وتعالى وتزكية الرسول ﷺ ؟

إن تزكية الرسول ﷺ كما عرفها الإمام ابن كثير : أي يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس ، وأفعال الجاهلية ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويعلمهم الكتاب وهو القرآن والحكمة وهي السنة ، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. . . .

وأما تزكية الله فهي : أن الله يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ، ويزكي النفوس من شركها ، وفجورها ودنسها ، وما فيها من أخلاق رديئة : كل بحسبه

= دار الحديث . بل الصواب أن نقول محمد ﷺ خليل كما أن إبراهيم خليل الله .

(١) انظر « تفسير النسفي » (٤/ ٢٦٧، ٢٦٨) ط. المطبعة العامرية .

ولولا ذلك لما حصَّل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً ، ولكن الله يزكي من يشاء .

فإن تزكية الرسول عامة لكل من أمتي الدعوة والإجابة ، وأما تزكية الله فهي خالصة لأمة الإجابة .

والمراد « بأمة الإجابة » : أي من بلغتهم دعوة الإسلام فاستجابوا لها وماتوا مؤمنين .

والمراد « بأمة الدعوة »[1] من بلغتهم الدعوة فلم يستجيبوا لها وماتوا على الكفر الظاهر كالمشركين وسائر الكفار ، أو على الكفر الباطن كالمنافقين.

أما تزكية الله سبحانه وتعالى فهي لمن شاء من أهل التقوى .كقوله تعالى: **﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾** [النور: ٢١].

وقوله تعالى : **﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾** [النساء: ٤٩].

وقوله تعالى : **﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾** [النور: ٢١].

فتزكية الرسول عامة (ولا نقصد هنا التزكية التي هي بمعنى المدح لأن الذين مدحهم الرسول ﷺ لهم منزلة ولكن نقصد التزكية التي هي بمعنى تطهير النفوس

---

(١) من خلال بيان أمة الدعوة والإجابة نستطيع أن نزيل الإيهام الذي وقع لبعض الناس بين حديث « **حياتي خير لكم تحدِّثون** - بضم المثناة الفوقية وكسر الدال المشددة - **ويحدث لكم** - بضم أوله وفتح الدال المشددة - **فإذا أنا مت كانت وفاتي خيراً لكم ، تعرض عليَّ أعمالكم ، فإن رأيت خيراً حمدت الله وإن رأيت شراً استغفرت لكم** » .
وحديث : « **إنكم تحشرون حفاة عراة غرلا ، وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل ، وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا رب أصحابي ، فيقول الله : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك** . . . » . فالحديث الأول يدل على اطلاع الرسل على الأعمال ، والثاني ينفي ذلك ، فكيف يكون التوفيق بينهما ؟
الحديث الأول : سنده جيد . قال صاحب « المواهب » روى البزار بسند جيد عن ابن مسعود رفعه . وقد روى هذا الحديث مرسلاً أيضًا ولكن جاء من وجوه أخرى ورواته ثقات كما نقل العزيز في شرح الجامع ، وقد رجع الشيخ الألباني عن تضعيفه وجوده .
الحديث الثاني : أخرجه البخاري من رواية ابن عباس فلا غبار عليه .

من أفعال الجاهلية وإخراجهم من الظلمات إلى النور)، أما تزكية الله سبحانه وتعالى فهي خاصة لمن شاء . والله أعلم .

الصنف الثالث : تزكية العبد لنفسه :

تزكية العبد لنفسه شهدت لها نصوص الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

ويمكن تقسيم تزكية العبد لنفسه إلى قسمين :

القسم الأول : محرم .

القسم الثاني : مندوب إليه .

أولاً : القسم الأول : المحرم

يقول تعالى : ﴿ **فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى** ﴾ [النجم: ٣٢].

ويقول تعالى : ﴿ **بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً** ﴾ [النساء: ٤٩].

يقول الإمام ابن كثير : ﴿ **فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ** ﴾ أي : تحمدوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم كما قال تعالى : ﴿ **بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً** ﴾(١) قال الحسن وقتادة في تفسير قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً** ﴾ نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى حين قالوا: ﴿ **نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ** ﴾ وفي قولهم : ﴿ **لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ** ﴾ . وقال مجاهد : كانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمونهم ويزعمون أنهم لا ذنوب لهم (٢) .

وروي عن جاهد وأبي مالك والسدي وعكرمة والضحاك : كان اليهود يقدمون صبيانهم يصلون إليهم ، ويقربون قربانهم ويزعمون أنهم لا خطايا لهم

(١) انظر « تفسير ابن كثير » (٦/ ٤٦٠) ط. دار الأندلس . بيروت .

(٢) انظر « تفسير ابن كثير » (٢/ ٣١٣ ـ ٣١٥) ط. دار الأندلس .بيروت .

ولا ذنوب ، وكذبوا ، قال الله : « إني لا أطهر ذا ذنب بآخر لا ذنب له » (١).

ويقول الزمخشري ـ رحمه الله ـ في قوله : ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ فلا تنسبوها إلى زكاء العمل وزيادة الخير وعمل الطاعات أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصي ولاتثنوا عليها واهضموها . فقد علم الله الزكي منكم والتقي أولاً وآخراً قبل أن يخرجكم من صلب آدم وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم . وقيل كان الناس يعملون أعمالاً حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا فنزلت وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب (٢) .

وسوف نتناول في الصنف الرابع إن شاء الله آفات المدح الستة التي هي أربع في المادح ، واثنتان في الممدوح . وعلة التحريم في هذه الآفات إن شاء الله . والله أعلم .

ثانيًا : القسم المندوب إليه أو الجائز :

يقول تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧ـ١٠] .

ويقول تعالى : ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [فاطر: ١٨].

ويقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ [الأعلى: ١٤].

ويقول تعالى : ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّى ﴾ [النازعات: ١٨].

يقول ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ : وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهو المفلح ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ (٣) .

ويقول الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى : ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر « الكشاف » تفسير الزمخشري (٤/ ٤٢ ، ٤٣) ط. المكتبة التجارية .

(٣) انظر « مدارج السالكين » (١/ ١٦ ، ١٧) ط. دار الحديث .

﴿يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ أي ومن عمل صالحًا فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي وإليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر (١) .

ويقول الإمام الزمخشري ـ رحمه الله ـ : فأما من اعتقد أن ما عمله من العمل الصالح من الله وبتوفيقه وتأييده ولم يقصد به المدح لم يكن من المشركين أنفسهم لأن المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر (٢) .

يقول الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ : اعلم أن على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ، ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه ويتأمل ما في خطر الخاتمة ودقائق الرياء وآفات الأعمال فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح ولو انكشف له جميع أسراره وما يجري على خواطره لكف المادح عن مدحه وعليه أن يظهر كراهية المدح بإذلال المادح (٣) .

ويقول الأستاذ عبد الوهاب النجار ـ رحمه الله ـ في قوله : ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف : ٣٧] .

قال الأستاذ : إن المؤمن بمبدأ من المبادئ حق الإيمان لا يترك فصة تمر دون أن يدعو ـ إلى مبدئه الذي تغلغل في أعماق نفسه ويبشر به . . . فأخذ يدعوهما إلى دينه بعد أن أبان لهما قدرته على تعبير كل رؤيا ، ولو كانت عن الطعام لنبأهما بتأويلها قبل أن يأتيهما ذلك الطعام .

وماذا يعيب المرء في مدح نفسه   إذا لم يكن في قوله بكذوب ؟ (٤)

---

(١) انظر « تفسير ابن كثير » (٥/ ٥٧٨ ، ٥٧٩) ط. دار الأندلس . بيروت .
(٢) انظر « الكشاف » (٤/ ٤٠ ، ٤١) ط. المكتبة التجارية .
(٣) انظر « إحياء علوم الدين » (٣/ ٢٣٤) بتحقيقي ط. المنار .
(٤) انظر « قصص الأنبياء » (ص/ ١٤٠ ، ١٤١) .

إن العمل الصالح لاشك أنه مندوب إليه ، كما قال ابن القيم وابن كثير ـ رحمهما الله ـ .

يقول الإمام النووي في أحاديث المدح التي ظاهرها التعارض : فهذه الأحاديث في النهي ، وجاء في الإباحة أحاديث كثيرة صحيحة ، قال العلماء: طرق الجمع بين الأحاديث أن يُقال : إن كان الممدوح عنده كمال إيمان ويقين ، ورياضة نفس ، ومعرفة تامة بحيث لا يفتن ، ولا يغتر بذلك، كُرِهَ مدحه في وجهه كراهة شديدة ، وعلى هذا التفصيل تنزّلت الأحاديث المختلفة في ذلك .

وعلى هذا فإن مدح الإنسان نفسه أو تزكيتها جائزة بشرط أن يكون آمنًا من الآفات التي ذكرها الغزالي والنووي كما سنوضح ذلك إن شاء الله تعالى.

الصنف الرابع : تزكية العبد للعبد :

ويمكن تقسيم تزكية العبد أوالتمادح إلى قسمين :

القسم الأول : محرم وأقله منهى عنه .

القسم الثاني : جائز .

أولا : المحرم وأقله المنهي عنه :

قال الغزالي ـ رحمه الله ـ في المدح [1] : وهو منهي عنه في بعض مواضع ، والمدح يدخل فيه ست آفات : أربع في المادح واثنتان في الممدوح .

فأما المادح ، **فالأولى** : إنه قد يفرط فينتهي به الأمر إلى الكذب . قال خالد ابن معدان : من مدح إمامًا أو أحدًا بما ليس فيه على رؤوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر لسانه .

الثانية : أنه يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الإطلاع عليه . وروي أن رجلاً مدح رجلاً عند النبي ﷺ فقال : « **ويلك قطعت عنق صاحبك قطعت عنق**

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٣/ ٢٣١ ـ ٢٣٣) بتحقيقي ط. دار المنار .

صاحبك » مرارًا - ثم قال : « **من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة فليقل : أحسب فلانًا والله حسيبه ولا أزكي على الله أحدًا أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه**»(١).

وهذه الآفة تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة كقوله : إنه متقٍ وورع وزاهد وخير وما يجري مجراه ، فأما إذا قال : رأيته يصلي بالليل ويتصدق ويحج ، فهذه أمور مستيقنة ، ومن ذلك قوله : أنه عدل رضا فإن ذلك خفي فلا ينبغي أن يجزم القول فيه إلا بعد خبرة باطنة ، سمع عمر رضي الله عنه رجلاً يثني على رجل فقال أسافرت معه ؟ قال : لا .

قال : أخالطته في المبايعة والمعاملة ؟ قال : لا .

قال : فأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال : لا .

فقال : والله الذي لا إله إلا هو لا أراك تعرفه .

الثالثة : أنه قد يدخله الرياء فإن المدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمرًا ولا معتقدًا لجميع ما يقوله فيصير به مرائيًا منافقًا .

الرابعة : أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز . قال ﷺ : « **إن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق** » (٢) .

---

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري في « صحيحه » (١٠/ ٥٥٢) «ح» (٦١٦٢) ، ومسلم في « صحيحه » (٤/ ٢٢٩٦) « ح » (٦٥/ ٣٠٠) وقد سبق تخريجه .

(٢) **الحديث ضعيف** : أخرجه ابن أبي الدنيا في « الصمت » والبيهقي في « الشعب » ، ورواه أبو يعلى الموصلي وابن عدي بلفظ : « **إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز العرش** » قال الذهبي في « الميزان » : منكر . وراجع « السلسلة الضعيفة » برقمي (٥٩٦ ، ١٣٩٩) و« ضعيف الجامع » برقم (٦٩٤) ، « وإحياء علوم الدين » (٣/ ٢٣٢) بتحقيقي .

قلت : له بديل صحيح بلفظ : « **لا تقولوا للمنافق سيد ، إن يك سيدا ، فقد أسخطتم ربكم عز وجل** » الحديث صحيح أخرجه أبو داود (٤٩٧٧) والبخاري في « الأدب المفرد » (٧٦٠) وأحمد في « المسند » (٥/ ٣٤٦ ، ٣٤٧) وصححه المنذري ، =

وقال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصي الله تعالى في أرضه ، والظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح .

وأما الممدوح فيضره من وجهين :

أحدهما : يحدث أنه فيه كبرا وإعجابا وهما مهلكان . قال الحسن رضي الله عنه : كان عمر رضي الله عنه جالسا ومعه الدرة والناس حوله إذ أقبل الجارود بن المنذر ، فقال رجل : هذا سيد ربيعة ، فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود، فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال : مالي ولك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ما لي ولك أما سمعتها ؟ قال سمعتها فمه ؟ قال : خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطئ منك .

الثاني : هو أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه ، ومن أعجب بنفسه قل تشمره ، وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصراً ، فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ، ولهذا قال ﷺ : « **قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح ...** » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : المدح هو الذبح ، وذلك لأن المذبوح هو الذي يفتر عن العمل والمدح يوجب الفتور .ا.هـ .

قال بعض السلف : من فرح بمدح قد مكن الشيطان من أن يدخل في بطنه.

وقال بعضهم : إذا قيل لك : نعم الرجل أنت ، فكان أحب إليك من أن يقال لك : بئس الرجل أنت ، فأنت والله بئس الرجل [(١)] .

* وقال علقمة بن مرثد : وأما أويس القرني ، فإن أهله ظنوا أنه مجنون ، فبنوا له بيتا على باب دارهم ، فكانت تأتي عليهم السنة والسنون لا يرون له وجهًا وكان طعامه مما يلتقط من النوى ، فإذا أمسى باعه لإفطاره ، وإن أصاب حشفة

= وقال النووي : رواه أبو داود بإسناد صحيح : « الرياض » رقم (١٧٢٥) .
(١) أنظر « إحياء علوم الدين » (٣/ ٤٢٤) ط. دار المنار ـ بتحقيقي .

حبسها لإفطاره (١) . وكان يتصدق بثيابه حتى إنه كان ليجلس عُريانًا لا يجد ما يروح فيه الجمعة (٢) .

وهذا من ؟ إنه أويس القرني سيد التابعين المشهود له بالجنة ، ولما بلغه أن عمر بن الخطاب قال لوفد اليمن : بلغوه سلامي وسلام رسول الله ﷺ ، فقال أويس: عرَّفني أمير المؤمنين وشهَّر بي، اللهم صلى علي محمد وعلى آله والسلام على رسول الله . ثم هام (فرَّ) على وجهه فلم يقف له بعد على أثر ، ثم عاد في أيام علي ، فاستشهد في « صفين » فنظروا فإذا عليه نيف وأربعون جراحة(٣) .

هؤلاء هم العلماء ، الذين لا يحبون الشهرة والصيت ، ولله درهم يفر الرجل من الشهرة كما لو أنه فر من الأسد ، أما نحن فنلهث خلفها ونطلبها حتى ولو كانت في ساحة المعصية ، وكذا حدث للإمام عبد القادر الجيلاني الحنبلي حينما فرَّ وقالوا له فقال : أفر بديني . وسوف نرى كثيرا من هذه النماذج إن شاء الله تعالى .

* روي عن عبد الله بن المبارك أنه قال : قدمت مكة فإذا الناس في قحط من المطر ، وهم يستسقون في المسجد الحرام ، وكنت في الناس مما يلي بني شيبة إذ أقبل غلام أسود عليه قطعتان خيش قد اتذر بأحدهما ، وألقى الأخرى على عاتقه، فصار في موضع خفي إلى جانبي ، فسمعته يقول : إلهي أخلقت الوجوه كثرة الذنوب ، ومساوئ الأعمال ، وقد منعتنا غيث السماء لتؤدب الخليقة بذلك فأسألك يا حليمًا ذا أناة ، يا من لا يعرف عباده منه إلا الجميل اسقهم الساعة ، الساعة .

قال ابن المبارك : فلم يزل يقول الساعة الساعة حتى استوت بالغمام وأقبل

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (٢/ ٣٠ ، ٣١) ط. الرسالة بيروت .
(٢) انظر « الحلية » لأبي نعيم (٢/ ٨٤) ط. دار الفكر .
(٣) انظر « سير أعلام النبلاء » (٢/ ٣٢) الرسالة . ط. بيروت .

المطر من كل مكان ، وجلس مكانه يسبح ، فأخذت أبكي إذ قام فأتبعته حتى عرفت موضعه فجئت إلى الفضيل بن عياض فقال لي : ما لي أراك كئيبًا ؟ قلت: سبقنا إليه غيرنا ، فتولاه دوننا قال : وما ذاك ؟ فقصصت عليه القصة ، فصاح وسقط .

فلما كان من غد صليت الغداة ، وخرجت أريد الموضع وإذا شيخ على الباب قد بُسط له ، وهو جالس ، فلما رآني عرفني وقال : مرحبًا يا أبا عبد الرحمن ، فقلت : احتجت إلى غلام أسود . قال : نعم عندي عدة فاختر أيهم شئت وصاح: يا غلام ، فخرج غلام جلد قال : هذا محمود العافية أرضاه لك، فقلت: ليس هذا حاجتي ، فما زال يخرج لي واحدًا واحدًا حتى أخرج إليّ الغلام فلما أبصرته بدرت عيناي فجلست ، فقال : هذا هو ؟ فقلت : نعم ، فقال: ليس إلى بيعه سبيل ، قلت : لم ؟ قال : قد تبركت بموضعه في هذه الدار، وذاك أنه لا يرزؤ لي أكثر من قوته . قلت : ومن أين طعامه وشرابه ؟ قال: يكسب من فتل الشريط نصف دانق أو أقل أو أكثر فهو قوته فإن أتاه في يومه وإلا طوى ذلك اليوم ، أخبرني الغلمان عنه أنه لا ينام هذا اليوم الطويل ، ولا يختلط بأحد منهم، مهتم بنفسه وقد أحبه قلبي ، فقلت: أنصرف إلى سفيان الثوري وإلى الفضيل بن عياض بغير قضاء حاجة ، فقال: إن ممشاك عندي كبير ، فخذه بما شئت قال : فاشتريته ، وأخذته نحو دار فضيل ، فمشيت ساعة إذ قال لي : يا مولاي ، فقلت : لبيك ، قال : لا تقل لي لبيك ، فإن العبد أولى أن يلبي من المولى ، قلت : حاجتك يا حبيبي ، قال : أنا ضعيف البدن لا أطيق الخدمة ، وفي غيري كان سعة قد أخرج إليك من هو أجلد مني ، فقلت : لا يراني الله تعالى أن أستخدمك ، ولكن أشتري لك منزلاً وأزوجك وأخدمك أنا بنفسي .

قال : فبكى فقلت له : ما يبكيك ؟ قال : أنت لم تفعل بي هذا إلا وقد رأيت بعض متصلاتي بالله عز وجل وإلا لم اخترتني من بين أولئك الغلمان ؟

فقلت له :ليس بك حاجة إلى هذا ، فقال لي : سألتك بالله إلا أخبرتني ، فقلت: بإجابة دعوتك ، فقال لي لما ذكرت له ذلك ، أحسبك إن شاء الله رجلاً صالحًا ، إن لله تعالى خيرة من خلقه لا ينكشف شأنهم إلا لمن أحب من عباده ولا يظهر عليهم إلا من ارتضى ، فقال لي : ترى أن تقف علي قليلاً قد بقيت عليَّ ركعات من البارحة ، قلت : هذا منزل فضيل قريب ، قال : لا هنا أحب إليَّ ، أمر الله لا يؤجل ، فدخل من باب الباعة إلى المسجد، فما زال يصلي حتى أتى على ما أراد والتفت إليَّ فقال : يا أبا عبد الرحمن هل من حاجة ؟ قلت : ولم ؟ قال : لأني أريد الانصراف ، قلت : إلى أين ؟ قال: إلى الآخرة ، قلت: لا تفعل دعني أسر بك ، فقال لي : قد كنت بطيب الحياة حيث كانت بيني وبينه، فأما إذا اطلعت أنت فسيطلع عليها غيرك ، وغيرك ولا حاجة لي في ذلك، ثم خرج لوجهه فجعل يقول : إلهي اقبضني إليك الساعة الساعة ، فدنوت منه فإذا هو قد مات ، فوالله ما ذكرته قط إلا طال حزني وصغرت الدنيا في عيني.ا.هـ [1] .

رؤي فضالة بن عبيد ـ وهو والي مصر ـ أشعث حافيا ، فقيل له : أنت الأمير ، وتفعل هذا ؟ فقال : « نهانا رسول الله ﷺ عن الإرفاء ، وأمرنا أن نختفي أحيانًا » [2] .

هؤلاء هم العلماء لا يقولون للفاسق أو الظالم : سيد ، بل يعنفوه ويوبخوه.

* قال الحجاج بن يوسف الثقفي ليحيى بن يعمر : ما تقول في واسط (مدينة بناها الحجاج) ؟

قال : ما أقول فيها وقد بنيتها من غير مالك وسيسكنها غير أهلك ؟

---

(١) ذكر هذا الأثر ابن قدامة المقدسي صاحب المغني في « الرقة » (ص/ ٢٥٧ ،٢٥٨) وفي إسناده أحمد بن مروان المالكي ، قال الذهبي : اتهمه الدارقطني ومشاه غيره . انظر «الميزان » (١/ ١٥٦) برقم (٦٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود بإسناد جيد .

فقال الحجاج في غيظ : ما حملك على ما قلت ؟

قال : ما أخذ الله تعالى على العلماء من العهد ألا يكتموا الله حديثا .

فقال له : أما تخشى سيف الحجاج ؟

فقال : لقد ملأتني خشية الله جل وعلا فلم تدع مكانا لخشية سواه [1] .

فهؤلاء العلماء قد وضعوا نصب أعينهم قوله ﷺ : « **لا تقولوا للمنافق سيد، فإن يك سيداً ، فقد أسخطتم ربكم عز وجل** » [2] .

* قيل إن الحجاج بن يوسف الثقفي قام خطيبًا فقال : أيها الناس الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله . فقام إليه رجل فقال له : ويحك يا حجاج ، ما أصفق وجهك ، وأقل حياءك تفعل ما تفعل وتقول مثل هذا الكلام خبت وضل سعيك . فقال الحجاج للحرس : خذوه ، فلما فرغ من خطبته قال له: ما الذي جرأك عليَّ ؟

فقال : ويحك يا حجاج أنت تجترئ على الله ولا أجترئ عليك ، ومن أنت حتى لا أجترئ عليك ، وأنت تجترئ على رب العالمين ؟!! فقال : خلوا سبيله ، فأطلق [3] .

وأُجبِرَ أحد العلماء على أن يدخل على ملك مصر ، وطُلِبَ منه أن يلبس ملابس خاصة فأبى ورفض ، وقال : كيف أتجمل له بلباس لا أتجمل به لربي في الصلاة [4] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالا : حدثنا سفيان عن منصور عن إبراهيم عن همام بن الحارث قال : جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه

(١) انظر « موارد الظمآن » (٢/ ١٢٦ ، ١٢٧).

(٢) الحديث صحيح وتقدم تخريجه .

(٣) انظر « موارد الظمآن » (٢/ ١٢٦، ١٢٧) .

(٤) المصدر السابق .

في وجهه ، قال : فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب ويقول : «أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو في وجوه المداحين التراب » [(١)] .

وقال بعضهم - لما مدح - : اللهم إن عبدك تقرب إلى بمقتك فأشهدك على مقته [(٢)] .

ثانيا : القسم الجائز :

إذا سلم المدح من الآفات الستة السابقة فإنه جائز ولا غبار عليه .

يقول الإمام الغزالي - رحمه الله - : فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق المادح والممدوح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوبا إليه ولذلك أثنى الرسول ﷺ على الصحابة فقال : « **لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجح** » [(٣)] .

وقال ﷺ في حق عمر : « **لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب** » [(٤)] .

وأي ثناء يزيد على هذا ؟ ولكنه ﷺ قال عن صدق بصيرة ، وكانوا رضي الله عنه أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبرا وعُجبا وفتورا [(٥)] .

---

(١) **الحديث الصحيح** : رواه مسلم في « صحيحه » (٤/ ٢٢٩٧) « كتاب الزهد » (٥٣) «ح» (٦٩/ ٣٠٠٢) ،وفي « المختصر » برقم (١٥٠٩) ،وأخرجه أحمد في «المسند»، وأبو داود ، ونقله ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٤٦٠) ط. الأندلس . بيروت.

(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (٣/ ٢٣٤ ، ٤٢٥) بتحقيقي. ط. المنار .

(٣) الحديث أخرجه إسحاق بن راهويه والبيهقي في « الشعب » بسند صحيح عن عمر من قوله ، وأخرجه ابن منده والديلمي كلاهما عن ابن عمر مرفوعا ، وفي سنده عيسى ابن عبد الله ضعيف ، ولكن أخرجه ابن عدي من طريق آخر ، وله شاهد في السنن عن أبي بكرة. وقواه العجلوني من هذه الشواهد . راجع « كشف الخفا » (٢/ ٢١٦) برقم (٢١٣٠) .

(٤) **الحديث حسن** : رواه الترمذي والحاكم وأحمد ، وحسنه الألباني . وراجع « السلسلة الصحيحة » برقم (٣٢٧).

(٥) انظر « إحياء علوم الدين » (٣/ ٢٣٣ ، ٢٣٤) ط. المنار .

وقال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ [1] : قال العلماء : وطريق الجمع بين الأحاديث أن يقال : إن كان الممدوح عنده كمال إيمان ويقين ،ورياضة نفس ، ومعرفة تامة بحيث لا يفتتن ، ولا يغتر بذلك ، ولا تلعب به نفسه ، فليس بحرام ولا مكروه ، وإن خيف عليه شيء من هذه الأمور ، كُرِهَ مدحه في وجهه كراهةً شديدة ، وعلى هذا التفصيل نُنَزِّلُ الأحاديث المختلفة في ذلك ، ومما جاء في الإباحة قوله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه : «**أرجو أن تكون منهم** » أي من الذين يدعون من جميع أبواب الجنة لدخولها ، وفي ذلك الحديث الآخر : «**لست منهم** » أي : لست من الذين يُسبلون أُزُرهم خيلاء . وقال ﷺ لعمر : « **ما رآك الشيطان سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك** » .

والأحاديث في الإباحة كثيرة ، وقد ذكرت جملة من أطرافها في كتاب «الأذكار» .ا.هـ . وخير شاهد لنا يبين جواز تزكية العباد للعبد ، حديث أنس رضي الله عنه قال : مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال النبي ﷺ « **وجبت** » ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً فقال: « **وجبت** » . فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما وجبت؟ قال : « **هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض** »[2] .

ومن حديث أبي الأسود قال : أتيت المدينة وقد وقع بها مرض وهم يموتون موتًا ذريعًا ، فجلست إلى عمر رضي الله عنه فمرَّت جنازة فأثني خيرا فقال عمر: وجبت ثم مر بأخرى فأثنى خيرا فقال : وجبت ثم مر بالثالثة فأثنى شرا فقال: وجبت . فقلت: وما وجبت يا أميرالمؤمنين ؟ قال : قلت كما قال النبي ﷺ : «**أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة** » قلنا وثلاثة قال « **وثلاثة** » قلت

(١) انظر « رياض الصالحين » (ص/ ٥٢٢ ، ٥٢٣) بتحقيقي .

(٢) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري في « صحيحه » (٣/ ٢٢٨) «ح» (١٢٦٧) ومسلم في « صحيحه » (٢/ ٦٥٥) « ح » ٦/ ٩٤٩) وراجع « الرياض » برقم (٩٥٠) بتحقيقي.

واثنان قال « **واثنان** » . ثم لم نسأله عن الواحد [١] .

ومن حديث أبي رافع حينما طُعن عمر بن الخطاب قال : وانطلق الناس نحو عمر يسألون عنه، ويدعون له ، ويقولون لا بأس عليك ، فقال عمر : إن يكن على في القتل بأسٌ فقد قتلت ، فجعلوا يثنون عليه ، فقال عمر: والذي نفسي بيده لوددت أن أنفلت منه كفافًا ، وسلم لي عملي مع رسول الله ﷺ ـ أو قال يسلم لي ما قبلها ـ قال : وابن عباس عند رأسه فقال : يا أمير المؤمنين لا والله لا ينفلت منه كفافًا ، لقد صحبت رسول الله ﷺ فصحبته خير صحبة ، صاحب كنت ، تفقد أمره ، وكنت في عونه حتى قبض ﷺ وهو عنك راض ثم واليتها بخير ما وليها ـ قال : وذكر محاسنه ـ فكأن عمر استراح إلى كلام ابن عباس وهو في كرب الموت ، فقال: كرر عليّ كلامك فأعاد الكلام فقال: والله لو أن لي طلاع الأرض ذهبًا لافتديت به من هول المطلع، وجاء صهيب فقال : واأخاه ، ورفع صهيب صوته فقال : مهلاً يا صهيب ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن المعول عليه يعذب** » .

---

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري في « صحيحه » (٣/ ١٨٢) ، وهو في « الرياض» برقم (٩٥١) بتحقيقي .



الفصل الثاني

تعريف النفس وبيان أقسامها

الفصل الثاني

تعريف النفس وبيان أقسامها

أولاً : تعريف النفس :

النفس أي الروح ، أو بمعنى : ذات الشيء وعينه . والجمع أنفس ، ونفوس. ويقال أصابته نفس :أي عين [١] .

ويقول الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي : « النفس » الروح يُقال خرجت نفسه ، والنفس : الدم ، ويقال سالت نفسه . وفي الحديث : « **ما ليس له نفس سائلة فإنه لاينجس الماء إذا مات فيه** » .

والنفس : الجسد ، ويقولون ثلاثة أنفس فيذكرونه ، لأنهم يريدون به الإنسان ونفس الشيء : عينه ويؤكد به ، يقال : رأيت فلانًا نفسه ، وجاءني بنفسه . والولد ، منفوس ، وفي الحديث : « **ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من الجنة والنار** » [٢] .

يقول الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ [٣] : وهذه الأحرف الثلاثة ـ وهي النون والفاء وما يثلثهما ـ تدل حيث وجدت على الخروج والانفصال، فمنه «النفل» لأنه زائد على الأصل خارج عنه .

النفس بمعنى الروح أو ذات الشيء وعينه ، ويؤكد ذلك حديث عبد الله بن عمر ، قال أنه ﷺ قال : « **لا يبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة**»[٤].

---

(١) انظر « المعجم الوجيز » (ص/ ٦٢٧) ط. المجمع اللغوي .

(٢) انظر « مختار الصحاح » (ص/ ١٩٨) ط. ٢ المطبعة الأميرية .

(٣) انظر « مدارج السالكين » (٣/ ١٩٥) ط. دار الحديث .

(٤) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري في « صحيحه » ، ومسلم في « صحيحه » (٧ / ١٨٦، ١٨٧) .

وكما ذكرنا آنفًا النفس : هي الروح .

وقد وردت لفظة « الروح » في القرآن على تسعة أوجه :

١ ـ الأمر : في قوله تعالى : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء: ١٧١] وإضافة روح إليه تعالى للتشريف .

٢ ـ الوحي : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ ﴾ [النحل: ٢] .

٣ ـ القرآن : ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢] .

٤ ـ الرحمة : ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢] .

٥ ـ الحياة : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ [الواقعة: ٨٩] .

٦ ـ جبريل : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ [مريم: ١٧] ، ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٣] .

٧ ـ ملك عظيم : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ [النبأ: ٣٨] .

٨ ـ جنس من الملائكة : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ ﴾ [القدر: ٤] .

٩ ـ روح البدن : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ [الإسراء: ٨٥] ، وقيل الروح هنا جبريل ، وقيل عيسى ، وقيل القرآن .

قال الحافظ ابن كثير : ثم ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء ، سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر ، وقرر أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم .

واعلم أن الروح : هي أصل النفس ومادتها ، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن فهي من وجه لا من كل وجه .

وقال الحافظ ابن كثير معقبًا على كلامه هذا : وهذا معنى حسن . والله

أعلم[١] .

والذي نرجحه ما قاله ابن كثير - رحمه الله - فالروح هي التي خلقها الله بيديه وأنها ذات لطيفة طالما لم تتصل بالجسد بعد فهي الروح ، فإذا اتصلت بالجسد سُميت النفس .

والدليل من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « **إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع كلمات ويقال له اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح ...** » [٢] فجاء في الحديث لفظ « الروح » لأنها لم تتصل بالجسد بعد .

وقوله ﷺ : « **لا يبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة** » وأطلق الرسول هنا اسم النفس لأنها متصلة فعلاً بالبدن .

تنويه : واختلف الفقهاء هل الروح خُلقت قبل الجسد أم الجسد قبل الروح؟

المذهب الأول :

يقول أصحاب هذا المذهب أن الروح خُلقت قبل الجسد ، وزعيم هؤلاء ابن حزم الأندلسي الظاهري، وادعى الإجماع في ذلك، واستدل بحديث ضعيف جدًا ولفظه : «**إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام ، فما تعارف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف** » قال عنه ابن حجر المكي في فتاويه ضعيف جدًا[٣] .

---

(١) نظر « تفسير ابن كثير » (٤/ ٣٤٦ ، ٣٤٧) ط. الأندلس . بيروت .

(٢) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري في « صحيحه » (٢٠١٦) ومسلم في « صحيحه » (٢٦٤٣) .

(٣) حيث قال ابن حجر المكي « في فتاويه » : ما روي عن ابن عباس « أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة » لا أصل له ، وأيضًا خبر خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام » ضعيف جدًا فلا يعول عليه . . . انظر « كشف الخفا » (١/ ١٢٢، ١٢٣) «ح» (٣١٥) ط. التراث .

المذهب الثاني :

قال أصحاب هذا المذهب أن الروح خُلقت مع الأجساد ، وجرى عليه جماعة، واستدلوا بما رواه الشيخان من حديث ابن مسعود : « **إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع كلمات ويقال له اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح ...** » .

ولكن أصحاب هذا المذهب قد جانبهم الصواب ؛ لأن نفخ الروح يختلف عن خلقها لأن النفخ معناه أنها موجودة في الأصل ، فإذا خُلقت الأجساد نفخت الأرواح فيها .

ثانيًا : بيان أنواع النفس :

بعد أن استعرضنا آنفًا تعريف النفس ، والفرق بين النفس والروح ، نوضح الآن بعض أنواع النفس التي وردت في القرآن الكريم .

النوع الأول : النفس المطمئنة :

يقول تعالى : ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾ [الفجر:٢٧-٣٠] .

يقول الإمام الزمخشري : المطمئنة : الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن، وهي النفس المؤمنة أو المطمئنة إلى الحق سكنها ثلج اليقين فلا يخالجها شك ويشهد للتفسير الأول قراءة أبي بن كعب « **يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة** » .

متى يقال لها ذلك النداء ؟

يقول الزمخشري : اختلف في ذلك على النحو الآتي :

١ ـ عند الموت .

٢ ـ عند البعث .

٣ ـ عند دخول الجنة ، على معنى : ارجعي إلى موعد ربك .

وقوله : ﴿ **فَادْخُلِي فِي عِبَادِي**﴾ أي : في جملة عبادي الصالحين وانتظمي في سلوكهم ، وقيل النفس والروح ومعناه فادخلي في أجساد عبادي ، وقرأ ابن عباس « **فادخلي في عبدي** » وقرأ ابن مسعود « **في جسد عبدي** » وقرأ أُبي «**ائتي ربك راضية مرضية. ادخلي في عبدي** » ، وقيل نزلت في حمزة بن عبد المطلب وقيل في خُبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة فقال : اللهم إن كان لي عندك خير فَحُول وجهي نحو قبلتك ، فحول الله وجهه نحوها فلم يستطع أحد أن يحوله ، والظاهر العموم [١] .

وقال الإمام النسفي ـ رحمه الله ـ : ولما مات ابن عباس بالطائف جاء طائر لم يُرَ على خلقته فدخل في نعشه فلما دفن تُليت هذه الآية على شفير القبر ولم يُدر من تلاها [٢] .

ويقول الشيخ أحمد الصاوي المالكي ـ رحمه الله ـ : ﴿ **الْمُطْمَئِنَّةُ** ﴾ لما ذُكر حال من كانت همته الدنيا ذُكر حال من اطمأنت نفسه بالله فسلم إليه أمره واتكل عليه، وقوله : « **الآمنة** » أي التي لا يستفذها خوف ولا حزن ، وقوله هي «**المؤمنة** » هذا قول ابن عباس . وقال الحسن : المؤمنة الموقنة .

وعن مجاهد : الراضية بقضاء الله التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأن ما أصابها لم يكن ليخطأها .

وقال ابن عطاء : العارفة التي لا تصبر عنه طرفة عين .

ثم قال الشيخ : وفي الحقيقة كل تلك المعاني صحيحة لأنه متى ثبت لها الإيمان عند الموت تحققت بذلك الخطاب . كلام المفسرين من جوامع الكلم [٣] .

---

(١) انظر « الكشاف » (٤/ ٢١١ ، ٢١٢) ط. المكتبة التجارية .

(٢) انظر « تفسير النسفي » (٤/ ٢٦٦ ، ٢٦٧) ط. الحسينية .

(٣) انظر « حاشية الشيخ أحمد الصاوي على الجلالين » (٤/ ٢٤٨ ، ٢٤٩) ط. العامرية.

ويرى الشيخ أحمد الصاوي المالكي : أن وقت هذا النداء فيه اختلاف :

١ ـ حين الموت . قال عبد الله بن عمر : « إذا توفي العبد أرسل الله إليه ملكين وأرسل إليه بتحفة من الجنة فيقال : أخرجي أيتها النفس المطمئنة ، أخرجي إلى روح وريحان » .

٢ ـ حين البعث .

٣ ـ ارجعي إلى صاحبك وهو الجسد فيأمر الله تعالى الأرواح أن ترجع إلى الأجساد . وهذا قال عكرمة وعطاء والضحاك [(١)] .

ويقول الشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشافعي : ﴿ **الْمُطْمَئِنَّةُ** ﴾ ذُكر حال من كانت همته الدنيا ذُكر حال من اطمأنت نفسه إلى الله تعالى فسلم لأمره واتكل عليه. ا. هـ القرطبي .

وقال ابن عباس : إن المطمئنة بثواب الله ، وعنه أيضًا المطمئنة المؤمنة .وقال ابن كيسان : المطمئنة المخلصة ، وقال ابن زيد : المطمئنة لأنها بُشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجمع [(٢)] .

النوع الثاني : النفس اللوامة

كلامه على كذا : لومًا : عذله . ألام فلان : أتى بما يُلام عليه ، فهو مُليم[(٣)].

يقول تعالى : ﴿ **لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾ [القيامة: ١ ، ٢] .

يقول الإمام النسفي ـ رحمه الله ـ : ﴿ **لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ أي أقسم ، ولا: صلة كقوله ﴿ **لئلا يعلم** ﴾ قوله: في بئر لا حور سرى وما شعر . وكقوله:

(١) انظر « حاشية الصاوي على الجلالين » (٤/ ٢٥٠) ط. العامرية .

(٢) انظر « تفسير الفتوحات الإلهية » (٤/ ٥٣٥، ٥٣٦) ط. حجازي بالقاهرة .

(٣) انظر « المعجم الوجيز » (ص/ ٥٦٩) ط. المجمع اللغوي .

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة وكاد ضمير القلب لا يتقطع

وعليه الجمهور ، وعن الفراء : لا : رد لإنكار المشركين البعث كأنه قيل : ليس الأمر كما تزعمون ثم قيل أقسم بيوم القيامة . وقيل أصله لا أقسم كقراءة ابن كثير على أن اللام للابتداء وأقسم خبر لمبتدأ محذوف أي لأنا أقسم ، ويقويه: إنه في الإمام بغير الألف ثم أشبع فظهر من الإشباع ألف وهذا اللام يصحبه نون التأكيد في الأغلب وقد يفارقه .

﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ : الجمهور على أنه قسم آخر ، وعن الحسن أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة فهي صفة ذم وعلى القسم صفة مدح أي النفس المتقية التي تلوم على التقصير في التقوى[1] .

ويقول الإمام الزمخشري : ﴿ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ : بالنفس المتقية التي تلوم النفس فيه أي في يوم القيامة على تقصيرها في التقوى أو بالتي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الإحسان .

وعن الحسن رضي الله عنه : إن المؤمن لا تراه إلا لائمًا نفسه ، وإن الكافر يمضي قدمًا لا يعاتب نفسه . وقيل : هي التي تتلوَّم يومئذ على ترك الازدياد إن كانت محسنة ، وعلى التفريط إن كانت مسيئة [2] .ا.هـ .

ويقول الشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشافعي : اختلف في اللام هنا على رأيين :

الرأي الأول : يرون أنها نافية لكلام المشركين المنكرين للبعث ، أي ليس الأمر كما زعموا ثم ابتدأ : أقسم بيوم القيامة .

قال القرطبي : إن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار

---

(١) انظر « تفسير النسفي » (٤/ ٢٣٥، ٢٣٦) ط. الحسينية .

(٢) انظر « الكشاف » (٤/ ١٦٣، ١٦٤) ط. المكتبة التجارية . وكذلك « إحياء علوم الدين» (٤/ ٥٨٣) .

فجاء الإسلام بالرد عليه .

الرأي الثاني : أنها مزيدة مثلها في ﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ [الحديد:٢٩] واعترضوا بأنها إنما تزداد في وسط الكلام لا في أوله .

وأجيب بأن القرآن في حكم سورة واحدة متصلة ، وعلى ذلك فإن ذكر الشيء في سورة ويذكر جوابها في سورة أخرى .

وضعَّف هذا الرد الزمخشري والعجيلي حيث قال : ورد هذا بأن القرآن في حكم السورة الواحدة في عدم التناقض لا في أن تقرن سورة بما بعدها فذلك غير جائز .

الرأي الثالث : قال الزمخشري : إدخال لا النافية إلى فعل القسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم وفائدتها توكيد القسم ، وقرأ ابن كثير بالقصر وعَدَّ قراءة الباقين بالمد .

« النفس اللوامة » التي تلوم صاحبها في الدنيا ، وهذا من بديع القسم تناسب الأمرين المقسم بهما حيث أقسم بيوم البعث وبالنفوس المجزية فيه على حقيقة البعث والجزاء [١] .

قال مالك بن دينار : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول : رحم الله امرءًا حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، رحم الله امرءًا أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به ، رحم الله امرءًا نظر في مكياله ، رحم الله امرءًا نظر في ميزانه، فما زال يقول حتى أبكاني [٢] .

وقال أبو نعيم :كان داود الطائي يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز ، فقيل له ، في ذلك فقال : بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية [٣] .

---

(١) انظر « الفتوحات الإلهية » (٤/ ٤٤٥ ، ٤٤٦) ط. حجازي القاهرة .
(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (٤/ ٥٨٤) ط. المنار بتحقيقي .
(٣) انظر « إحياء علوم الدين » (٤/ ٥٩٤ ، ٥٩٥) ط. المنار بتحقيقي .

وقال بعض الصالحين : بينما أسير في مسير لي إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها ، فإذا أنا بشيخ قد أشرف عليَّ فقال لي : يا هذا قم فإن الموت لم يمت ، ثم هام على وجهه فاتبعته وهو يقول ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ (١) [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥] .

النوع الثالث : النفس الأمارة بالسوء :

يقول الإمام ابن قيم الجوزية : فمن عرف حقيقة نفسه وما طُبعت عليه علم أنها منبع كل شر ومأوى كل سوء ، وأن كل خير فيها فضل من الله ، الله منَّ به عليها ، لم يكن منها ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢١].

وقال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧] .

فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها ، ولكن هو الله الذي منَّ بهما (٢) . ويقول الشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشافعي في قوله : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ [يوسف: ٥٣]. قال : أي لصاحبها بالسوء هو لفظ «جامع» لكل ما يهم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية والسيئة الفعلة القبيحة. واختلفوا في « النفس الأمارة بالسوء » ما هي ؟ فالذي عليه أكثر المحققين من المتكلمين وغيرهم أن النفس الإنسانية واحدة ولها صفات منها :

١ ـ النفس الأمارة بالسوء .

٢ ـ النفس اللوامة .

٣ ـ النفس المطمئنة .

---

(١) انظر المصدر السابق .

(٢) انظر « مدارج السالكين » (١/ ٢٤٣) ط. دار الحديث .

فهذه الثلاث مراتب هي صفات لنفس واحدة ، فإذا دعت النفس إلى شهواتها ومالت إليها فهي النفس الأمارة بالسوء ، وإذا منعتها النفس اللوامة ولامتها على ذلك الفعل القبيح من ارتكاب الشهوات فتحصل عند ذلك الندامة على ذلك الفعل القبيح ، وهذا من صفات النفس المطمئنة .

وقيل : إن النفس أمارة بالسوء بطبعها ، فإذا زكت وصَفَت من أخلاقها الذميمة صارت مطمئنة [١] .

وقال الحافظ ابن كثير : تقول المرأة : ولست أبرئ نفسي ، فإن النفس أمارة تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته لأن ﴿ النفس لأمارة بالسوء ﴾ : أراد الجنس أي أن هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه بما فيه من الشهوات ﴿ إلا ما رحم ربي ﴾ فيها ثلاث أقوال :

١ ـ **القول الأول** : أي الذي رحمه ربي بالعصمة كالملائكة .

٢ ـ **القول الثاني** : يجوز أن يكون « ما رحم » في معنى الزمان أي إلا وقت رحمة ربي ، يعني : إنها أمارة بالسوء في كل وقت وأوان إلا وقت العصمة .

٣ ـ **القول الثالث** : يجوز أن يكون استثناء منقطعا أي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة [٢] .

بيان بعض صنوف النفس :

قسم بعض أهل العلم النفس إلى سبعة أقسام [٣] :

القسم الأول : الأمارة بالسوء وهي نفوس الكبار ومن حذا حذوهم ، لا تأمر بخير أصلاً ومع ذلك راضية بأفعالها مستحسنة لها .

القسم الثاني : اللوامة وهي التي تلوم صاحبها ولو كان مجتهداً في الطاعة

(١) انظر تفسير « الفتوحات الإلهية » (٤/ ٤٦٠ ، ٤٦١) ط. حجازي القاهرة .

(٢) انظر « الكشاف » (٢/ ٢٦٢ ، ٢٦٣) ط. المكتبة التجارية .

(٣) انظر « حاشية الصاوي على الجلالين » (٤/ ٢١١ ، ٢١٢) ط. العامرية .

وهذا هو مبدأ الخير وأصل الترقي .

القسم الثالث : الملهمة وهي التي ألهمت فجورها وتقواها .

القسم الرابع : المطمئنة : وهي التي اطمأنت بالله وسكنت تحت مقاديره.

القسم الخامس : الراضية : وهي التي رضيت عن الله في جميع حالاتها .

القسم السادس : المرضية وهي التي جوزيت بالرضا [1] من الله لأن من رضي فله الرضا .

القسم السابع : الكاملة : وهي غاية المراتب ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ومأخذ الجميع من القرآن الكريم .

وبعد أن تفحصنا ، ونظرنا في تعريف التزكية وبيان أنماطها ، وتكلمنا عن النفس ، وبيان أنواعها ، نستطيع أن نعرض للأعمال التي تزكي النفس . وقبل أن نخوض في هذا المضمار يجب علينا بيان أمرين في غاية الأهمية حيث إن جميع الأعمال تركن إليهما وهما :

---

(١) قلنا : أجمع العلماء على أن الرضا مستحب ، مؤكدًا استحبابه ، واختلفوا في وجوبه على قولين :

يقول الإمام ابن قيم الجوزية : سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يحكيها على قولين لأصحاب أحمد ، وكان يذهب إلى القول باستحبابه ، ولم يجئ الأمر به، كما جاء الأمر بالصبر ، وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم ، وقال : وأما ما يروي من الأثر « **من لم يصبر على بلائي ، ولم يرض بقضائي ، فليتخذ ربًا سوائي**» فهذا أثر إسرائيلي ليس يصح عن النبي ﷺ .

درجات الرضا : الدرجة الأولى : رضا العامة ، وهو الرضا بالله ربا ، وتسقط عبادة ما دونه، وهذا قطب رحى الإسلام .

الدرجة الثانية : الرضا عن الله ، وبهذا نطقت آيات التنزيل ، وهو الرضا عنه في كل ما قضى وقدَّر ، وهذا من أوائل مسالك أهل الخصوص . انظر « مدارج السالكين » (٢/ ١٧٥ - ١٧٧).

ونستطيع أن نوجز ذلك : الرضا بالله - الرضا عن الله - الرضا بقضاء الله .

١ ـ النية والإخلاص .

٢ ـ علو الهمة في تزكية النفس الإنسانية .

الفصل الثالث

البيان فيما يسبق الأعمال من كلام



الفصل الثالث

البيان فيما يسبق الأعمال من كلام

أولاً : الإخلاص :

الإخلاص شعبة أساسية من أرفع شُعب الإيمان ومقام من أعظم مقامات الدين، وخُلق من أجل أخلاق الربانيين ، وهو الخلق الذي لا يقبل الله عملاً إلا به ، فبغيره لا يكون العمل مرضيًا عند الله تعالى ، كما قال سليمان عليه السلام: **﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾** [النمل:١٩].

وإنما يرضى الله العمل الصالح في ذاته إذا تحقق فيه الإخلاصُ ، وانتفى منه الشرك أكبره وأصغره ، جليه وخفيه **﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾** [الكهف: ١١٠]. ولا يتم الإخلاص إلا بتوافر النية الصادقة ، وتجريدها لله ، وتخليصها من الشوائب والرغبات الذاتية والدنيوية (١).

تعريف الإخلاص :

يقول العلامة ابن قيم الجوزية : الإخلاص : تصفية العمل من كل شوب ، أي لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس : إما طلب التزين في قلوب الخلق ، وإما طلب مدحهم ، والهرب من ذمهم ، أو طلب تعظيمهم ، أو طلب أموالهم ، أو خدمتهم ومحبتهم ، وقضائهم حوائجه ، أو غير ذلك من العلل والشوائب ، التي عقد متفرقاتها : هو إرادة ما سوى الله بعمله ، كائنًا ما كان (٢) .

---

(١) من مقدمة الدكتور القرضاوي في كتابه « النية والإخلاص » (ص/ ٧ ، ٨) ط. وهبة.
(٢) انظر « مدارج السالكين » (٢/ ٩٦) ط. دار الحديث .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة : ٥].

ويقول تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٤، ١٥].

ويقول تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣].

وفي الحديث الإلهي يقول تعالى: « **أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به وأنا منه بريء** » [١] .

وفي الحديث : « **إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم** » [٢] .

وقد قال تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى منكم ﴾ [الحج: ٣٧].

يقول ابن القيم : يقول الجنيد : الإخلاص سر بين الله وبين العبد . لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله [٣] .

وقيل لسهل : أي شيء أشد على النفس ؟ فقال : الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب [٤] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن أول الناس يُقضي يوم القيامة عليه : رجل استشهد فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها.**

---

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه مسلم في « صحيحه » (٢٩٨٥) من رواية أبي هريرة وفي «الرياض» برقم (١٦١٦) بتحقيقي لم يطبع بعد .

(٢) **الحديث صحيح** : أخرجه مسلم في « صحيحه » برقم (٢٥٦٤) من رواية أبي هريرة ، وفي « الرياض » برقم (٧) .

(٣) انظر « مدارج السالكين » (٢/ ٩٥) ط. دار الحديث .

(٤) انظر المصدر السابق .

قال: فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء وقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ وقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد وقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار»[1].

ويقول الإمام الغزالي : اعلم أن كل شيء يتصوَّر أنه يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصًا ، ويسمى الفعل المصفى المخلص : إخلاصًا، والإخلاص يضاده الإشراك ، فما ليس مخلصًا فهو شرك إلا أن الشرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يضاده الشرك في التوحيد [2] .

درجات الإخلاص :

هو على ثلاث درجات كما قال ذلك ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

الدرجة الأولى : إخراج رؤية العمل عن العمل ، والخلاص من طلب العمل. يعرض للعامل في عمله ثلاث آفات :

١ ـ رؤيته .

٢ ـ ملاحظته .

---

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه مسلم (١٩٠٥) ،والترمذي في « سننه » (٢٣٨٣) ، والنسائي (٦/ ٢٣ ، ٢٤) ، وفي « الرياض » (١٦ ، ١٧) بتحقيقي .

(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (٤/ ٥٤٦ ، ٥٤٧) ط. المنار بتحقيقي.

٣ ـ طلب العوض عليه ، ورضاه به ، وسكونه إليه .

ففي هذه الدرجة يتخلص من هذه البلية فالذي يخلصه من رؤية عمله ، لابد أن يتيقن أن ذلك بالله لا بنفسه ، وأنه إنما أوجب عمله مشيئة الله لا مشيئته هو ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٩] .

فالخير الذي يصدر منه: إنما هو من الله ، وبه ، لا من العبد ، ولا به كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢١].

فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنته ، وإحسانه ونعمته . وهو المحمود عليه ، فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة ، كرؤيته لصفاته الخلقية : من سمعه وبصره ، وإدراكه وقوته ، بل من صحته وسلامة أعضائه ، ونحو ذلك فالكل مجرد عطاء الله ونعمه وفضله .

ويقول ابن القيم رحمه الله :وكان بعض السلف يصلي في اليوم والليلة أربعمائة ركعة ، ثم يقبض على لحيته ويهزها ، ويقول لنفسه : يا مأوى كل سوء، وهل رضيتك لله طرفة عين ؟

وقال بعضهم : آفة العبد رضاه عن نفسه ، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها ، ومن لم يهتم بأمر المسلمين على دوام الأوقات فهو مغرور.

الدرجة الثانية : « الخجل من العمل ، مع بذل المجهود ، وتوفير الجهد بالاحتماء من الشهود ، ورؤية العمل في نور التوفيق من عين الجود » .

وهذه ثلاث أمور :

الأول : «خجله من عمله » وهو شدة حيائه من الله . إذ لم ير ذلك العمل صالحًا ، مع بذل مجهود فيه . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] وقال ﷺ : **«هو الرجل يصوم ، ويصلي،**

ويتصدق ، ويخاف أن لا يقبل منه » [١] .

وقال بعضهم : إني لأصلي ركعتين فأقوم عنهما بمنزلة السارق أوالزاني ، الذي يراه الناس ، حياء من الله عز وجل .

الثاني : «توفير الجهد بالاحتماء من الشهود » أي يأتي بجهد الطاقة في تصحيح العمل ، محتميًا عن شهوده منك وبك .

الثالث : أن تحتمي بنور التوفيق الذي ينور الله به بصيرة العبد ، فترى في ضوء ذلك النور أن عملك من عين جوده لابك ولا منك .

وقد اشتملت هذه الدرجة على خمس أشياء :

١ ـ عمل .

٢ ـ اجتهاد به .

٣ ـ خجل .

٤ ـ حياء من الله عز وجل .

٥ ـ صيانة عن شهوده منك ، ورؤيته من عين جود الله سبحانه ومنَّه .

الدرجة الثالثة : إخلاص العمل بالخلاص من العمل ، وتدعه يسير سير العلم، وتسير أنت مشاهدًا للحكم ، حرًا من رقّ الرسم .

معنى الكلام : أنك تجعل عملك تابعًا للعلم ، موافقًا له ، مؤتمًا به ، تسير بسيره وتقف بوقفه ، وتتحرك بحركته ، نازلاً منازله ، مرتويًا من موارده . ناظراً إلى الحكم الديني الأمري متقيدًا به ، فعلاً وتركًا وطلبًا وهربًا ، ناظراً إلى ترتب الثواب والعقاب عليه سببًا وكسبًا ، ومع ذلك فتسير أنت بقلبك ، مشاهدًا للحكم الكوني القضائي، الذي تنطوي فيه الأسباب والمسببات ، والحركات والسكنات ، ولا يبقى هناك غير محض المشيئة ، تفرد الرب وحده بالأفعال ، ومصدرها عن إرادته ومشيئته ، فيكون قائمًا بالأمر والنهي : فعلاً وتركًا ، سائراً بسيره ،

(١) أخرجه الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها . انظر « الزواجر عن اقتراف الكبائر » (ص٥) ط. الحلبي .

وبالقضاء والقدر: إيمانًا وشهودًا ، وحقيقة فهو ناظر إلى الحقيقة ، قائم بالشريعة.

وأما قوله « حرًا من رقِّ الرسم » فالحرية التي يشيرون إليها : هي عدم الدخول تحت عبودية الخلق والنفس ، والدخول تحت عبودية الحق وحده .

ومرادهم بالرسم : ما سوى الله ، فكله رسوم . فإن الرسوم : هي الآثار ، ورسوم المنازل والديار : هي الآثار التي تبقى بعد سكنها . والمخلوقات بأسرها في منزل الحقيقة ورسوم وآثار للقدرة .

فهذه أربعة أمور :

١ ـ بذل الجهد .

٢ ـ تحكيم العقل .

٣ ـ النظر إلى الحقيقة .

٤ ـ التخلص من الالتفات إلى غيره .

الفرق بين الإخلاص والصدق :

الإخلاص : عدم انقسام المطلوب .

الصدق : عدم انقسام الطلب .

فحقيقة الإخلاص : توحيد المطلوب ، وحقيقة الصدق : توحيد الطلب والإرادة ، ولا يثمران إلا بالاستسلام المحض للمتابعة [1] .

قال الحارث المحاسبي : الإخلاص لا يدخل في مباح ، لأنه لا يشتمل على

---

(١) انظر « مدارج السالكين » (٢/ ٩٦ ـ ١١٠) ط. دار الحديث .

والفرق بين الصدق والإخلاص أيضًا : الصدق يتحقق بتحقق جميع المقامات والأحوال، حتى إن الإخلاص يفتقر إلى الصدق ، والصدق لا يفتقر إلى شيء ؛ لأن حقيقة الإخلاص هو إرادة الله تعالى بالعبادة ، فقد يريد الله بالصلاة ولكنه غافل عن حضور القلب فيها . والصدق هو إرادة الله بالعبادة مع حضور القلب . فكل صادق مخلص وليس كل مخلص صادق .

قربة ولا يؤدي إلى قربة ، كرفع البنيان لا لغرض بل لغرض الرعونة ، أما إذا كان لغرض كالمسجد والقناطر والأربطة فيكون مستحبًا . قال : لا إخلاص في محرم ولا مكروه ، كمن ينظر إلى ما لا يحل له النظر إليه ويزعم أنه ينظر إليه ليتفكر في صنع الله تعالى ، كالنظر إلى الأمرد ، وهذا لا إخلاص فيه بل لا قربة البتة[١].

يقول الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ : ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما [٢] .

قال أبو سليمان الداراني : إذا خلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء [٣] .

ثانيًا النية :

تعريف النية : لا يتحقق الإخلاص في العمل إلا بعنصرين أساسيين :

الأول : استحضار النية فيه فإنما الأعمال بالنيات ، ومن أدى العلم أداءً آليًا ، بغير نية طيبة أو خبيثة ، لم يدخل في زمرة المخلصين .

الثاني : تجريدها من الشوائب الذاتية والدنيوية ، حتى تخلص لله سبحانه .

والقرآن يعبر عن هذه النية المشروطة بعبارات مختلفة مثل : أراد الآخرة ، أو أراد وجه الله ، أو ابتغاء وجهه ، أو ابتغاء مرضاته .

يقول تعالى : ﴿ **مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا** ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

(١) انظر « شرح الأربعين النووية » (ص/ ٧) ط. دار الحديث .
(٢) انظر « مدارج السالكين » (٢/ ٩٥) ط. دار الحديث .
(٣) المصدر السابق .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٧٢][١].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»** [٢] . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ: **«يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم»** قالت: قلت يا رسول الله ! كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ، ومن ليس منهم ؟ قال : **« يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم »** [٣] .

يقول الإمام الغزالي : اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى وحد ، وهو حالة وصفه للقلب يكتنفها أمران : علم وعمل [٤] .

والنية هي التي تميز العادة من العبادة .

ودل حديث عمر رضي الله عنه أن النية معيار لتصحيح الأعمال ، فحيث صلحت النية صلح العمل ، وحيث فسدت النية فسد العمل ، وإذا وجد العمل وقارنته النية فله ثلاث أحوال :

الأول : أن يفعل ذلك خوفًا من الله تعالى .

الثانية : أن يفعل ذلك لطلب الجنة أو النار .

---

(١) انظر : الدكتور القرضاوي « في الطريق إلى الله » (ص/ ١٧، ١٨) ط. وهبة .

(٢) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري في « صحيحه » (١/ ٧ - ١٥) ومسلم في «صحيحه» (١٩٠٧) ، والترمذي في « سننه » (١٦٤٧) والنسائي (١/ ٥٩ ، ٦٠) وأبو داود (٢٢٠١) .

(٣) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري في « صحيحه » (٤/ ٢٨٤) ومسلم في «صحيحه» (٢٨٨٤) وهذا لفظ البخاري .

أسواقهم : بالسين المهملة والقاف : أهل أسواقهم أو السوقة منهم .

(٤) انظر « إحياء علوم الدين » (٤/ ٥٢٦) ط. المنار . بتحقيقي .

الثالث : أن يفعل ذلك حياء من الله وتأدية لحق العبودية وتأدية الشكر ويرى نفسه مع ذلك مقصراً ، ويكون مع ذلك قلبه خائفًا ، لأنه لا يدري هل قبل عمله أم لا ؟ ولذلك لما صلى رسول الله ﷺ وقالت له عائشة : أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال : « **أفلا أكون عبداً شكوراً** » [1] .

النية لغة : القصد . ولذلك يقال : نواك الله بخير أو قصدك به .

والنية شرعًا : قصد الشيء مقترنًا بالفعل ، فإن قصد وتراخي عنه فهو عزم، وشرعت النية لتميز العادة من العبادة ، أو لتميز رتب العبادة بعضها ببعض [2] .

وقوله « **إنما الأعمال** » يقول الإمام السندي ـ رحمه الله ـ : « أن يقال المراد بالأعمال مطلق الأفعال الاختيارية الصادرة عن المكلفين وهذا إما لأن الكلام في تلك الأفعال إذ لا عبرة بغيرها ، ولا يبحث عنها في الشرع ، ولا يلتفت إليها ولأن العمل لا يقال إلا للفعل الاختياري الصادر عن أهل العقل كما نص عليه البعض فلذلك لا يُقال « عمل البهائم » كما يقال « فعل البهائم » وقد تقرر أن الفعل الاختياري يكون مسبوقًا بقصد الفاعل الداعي له إليه وهو المراد بالنية ، فالمعنى أن الأفعال الاختيارية لا توجد ولا تتحقق إلا بالنية والقصد الداعي للفاعل إلى ذلك الفعل » [3] .

وعن أبي يزيد معن بن يزيد بن الأخنس رضي الله عنهم ـ وهو وأبوه وجده صحابيون ـ قال : كان أبي يزيد أخرج دنانير يتصدق بها فوضعها عند رجل في المسجد فجئت فأخذتها فأتيته بها فقال : والله ما إياك أردت فخاصمته إلى

---

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري في « صحيحه » (٤/ ٤٤٩) ومسلم في «صحيحه» (٢٨١٩ ، ٢٨٢٠) وفي الحديث « **حتى تتفطر قدماه** » بفتح الفاء والطاء أي تتشق .

(٢) انظر « شرح الأربعين النووية » (ص/ ٧٨) ط. المنار .

(٣) انظر « شرح البخاري » (١/ ٣ ، ٤) بشرح السندي والقسطلاني وشيخ الإسلام . ط. العثمانية .

رسول الله ﷺ فقال : « **لك ما نويت يا يزيد ولك ما أخذت يا معن** » [(١)] .

وفي هذا الحديث جواز الافتخار بالمواهب الربانية والتحدث بنعم الله ، وفيه جواز التحاكم بين الأب والابن ، وأن ذلك بمجرده لا يكون عقوقًا ، وجواز الاستخلاف في الصدقة ولاسيما صدقة التطوع لأنه فيه نوع إسرار ، وفيه أن للمتصدق أجر ما نواه سواء صادف المستحق أو لا .

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ : « **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله** » [(٢)] .

وقال بعض السلف : من سرَّه أن يكمل له عمله فليحسن نيته ، فإن الله عز وجل يأجر العبد إذا أحسن نيته ، حتى باللقمة [(٣)] .

وقال بعض العلماء : اطلب النية للعمل ، وما دمت تنوي الخير فأنت بخير .

ومن حديث جابر قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « **يبعث كل عبد على ما مات عليه** » [(٤)] ، ويقول ﷺ : « **يبعث الناس على نياتهم** » [(٥)] .

وقوله : « **وإنما لكل امرئ ما نوى** » دليل على أنه لا تجوز النيابة في العبادات، ولا التوكيل في نفس النية ، وقد استثنى من ذلك تفرقة الزكاة وذبح الأضاحي ، فيجوز التوكيل فيهما في النية والذبح والتفرقة مع القدرة على النية

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري في « صحيحه » (٣/ ٢٣١ ـ ٢٣٢) .
(٢) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري في « صحيحه » (١/ ١٩٧) و(٦/ ٢١ ـ ٢٢) ومسلم في « صحيحه » (١٥٠ ، ١٩٠٤) وهو « الرياض » برقم (٨) بتحقيقي .
(٣) انظر « جامع العلوم والحكم » (ص/ ٧٠) ط. الرسالة .
(٤) **الحديث صحيح** : أخرجه مسلم في « صحيحه » (٤/ ٢٢٠٦) «ح» (٨٣/ ٢٢٧٨) .
(٥) **الحديث صحيح** : صححه الألباني وراجع « صحيح الترغيب » (١١) و « صحيح الجامع » برقم (٨٠١٤) وله شاهد عند مسلم (١٩٤٨) أما بلفظ « **إنما يبعث** . . . » ضعفه الحافظ العراقي ، وانظر « الإحياء » (٤/ ٥٢٥) بتحقيقي ط. المنار .

وفي الحج لا يجوز ذلك مع القدرة .

ثالثًا : علو الهمة :

تعريف الهمة :

الهمة : ما هم به من أمر ليفعل ، والعزم القوي ، والجمع همم ، وهمَّ بالأمر: عزم على القيام به ولم يفعله [١] .

يقول الإمام ابن القيم : « همة » فعلة من الهم ، وهو مبدأ الإرادة ، ولكن خصوها بنهاية الإرادة فالهمُ مبدؤها والهمَّة نهايتها .

والعامة تقول : قيمة كل امرئ ما يحسن ، والخاصة تقول : قيمة كل امرئ ما يطلب ، يريد أن قيمة المرء همته ومطلبه .

وقال صاحب المنازل : الهمة : ما يملك الانبعاث للمقصود صرفًا ، لا يتمالك صاحبها ولا يلتفت عنها. والمراد أن همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى طلبًا صادقًا خالصًا محضًا ، فتلك هي الهمة العالية التي « لا يتمالك صاحبها » أي لا يقدر على المهلة ، ولا يتمالك صبره لغلبة سلطانه عليه ، وشدة إلزامها إياه بطلب المقصود . و« لا يلتفت عنها » إلى ما سوى أحكامها ، وصاحب هذه الهمة سريع وصوله وظفره بمطلوبه ما لم تعقه العوائق ، وتقطعه العلائق . والله أعلم .

قال الشاعر : وما أنا بالهم الكبير ولا الطفل

وقال ابن القيم : سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : في بعض الآثار الإلهية ، يقول الله تعالى : « إني لا أنظر كلام الحكيم ، وإنما أنظر إلى همته » [٢] .

وقال الجرجاني : الهمّ هو : عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل ، من

(١) انظر « المعجم الوجيز » (ص/ ٦٥٣) ط. المجمع اللغوي .
(٢) انظر « مدارج السالكين» (٣/ ٣ ، ٤) ط. دار الحديث .

خير أو شر .

والهمة : توجه القلب وقصده بجميع قواه الروحانية إلى جنب الحق ، لحصول الكمال له ولغيره (١) .

وقال الشيخ سيد قطب ـ رحمه الله ـ :

أخي فامض لا تلتفت للوراء طريقك قد خضبته الدماء

ولا تلتفت هاهنا أو هنـــاك ولا تتطلع لغير السـماء (٢)

درجات الهمة :

وهي على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى : « همة تصون القلب عن وحشة الرغبة في الفاني ، وتحمله على الرغبة في الباقي وتصفيه من كدر التواني » .

« الفاني » الدنيا وما عليها ، أي يزهد القلب فيها وفي أهلها ، وسمى الرغبة فيها « وحشة » لأنها وأهلها توحش قلوب الراغبين فيها ، وقلوب الزاهدين فيها.

أما الراغبون فيها : فأرواحهم وقلوبهم في وحشة من أجسامهم ، فإذا فاتها ما خلقت له فهي في وحشة لفواته .

وأما الزاهدون فيها : فإنهم يرونها موحشة لهم ، لأنها تحول بينهم وبين مطلوبهم ومحبوبهم ، ولا شيء أوحش عند القلب مما يحول بينه وبين مطلوبه ومحبوبه ،ولذلك كان من نازع الناس أموالهم وطلبها منهم ، أوحش شيء إليهم وأبغضه .

وأيضًا فالزاهدون فيها إنما ينظرون إليها بالبصائر ، والراغبون فيها ينظرون إليها بالأبصار ، فيستوحش الزاهد مما يأنس به الراغب ، كما قيل :

(١) انظر « التعريفات » (ص/ ٣٢١) ط. الفكر .

(٢) انظر « علو الهمة » (ص/ ٤٤) للشيخ محمد إسماعيل ط. العقيدة للتراث .

وإذا أفاق القلبُ واندمل الهوى رأت القلوبُ ولم تر الأبصارُ

الدرجة الثانية : « همة تورث أنفة من المبالاة بالعلل ، والنزول على العمل والثقة بالأمل ».

« العلل » هاهنا : هي علل الأعمال من رؤيتها ، أو رؤية ثمراتها وإرادتها ونحو ذلك فإنها عندهم علل . فصاحب هذه الهمة ، يأنف على همته ، وقلبه من أن يبالي بالعلل . فإن همته فوق ذلك فمبالاته بها وفكرته فيها نزول من الهمة.

وعدم هذه المبالاة : إما لأن العلل لم تحصل له ، لأن علو همته حال بينه وبينها ، فلا يبالي بما لم يحصل له ، وإما لأن همته وسعت مطلوبه ، وعلوه يأتي على تلك العلل ، ويستأصلها ، فإنه إذا علق همته بما هو أعلى منها تضمنتها الهمة العالية .

وإن العالي الهمة مطلبه فوق مطلب العمال والعباد ، وأعلى منه ، فهو يأنف أن ينزل من سماء مطلبه العالي إلى مجرد العمل والعبادة ، دون السفر بالقلب إلى الله ليحصل له ويفوز به .... وهذا الأمر إنما يكون لأهل المحبة الصادقة ، فهم لا يقنعون بمجرد رسوم الأعمال ، ولا بالاقتصار على الطلب حال العمل فقط.

الدرجة الثالثة : « همة تتصاعد عن الأحوال والمعاملات ، وتُزري بالأعواض والدرجات ، وتنحو عن النعوت نحو الذات » .

أي هذه الهمة أعلى من أن يتعلق صاحبها بالأحوال التي هي آثار الأعمال والواردات ، أو يتعلق بالمعاملات ، وليس المراد تعطيلها ، بل القيام بها مع عدم الالتفات إليها ، والتعلق بها .

ووجه صعوبة هذه الهمة عن هذا : ما ذكره « وتُزري بالأعواض والدرجات، وتنحو عن النعوت نحو الذات » أي صاحبها لا يقف عند عوض ولا درجة ، فإن ذلك نزول من همته ، ومطلبه أعلى من ذلك . فإن صاحب هذه الهمة قد قصر

همته على المطلب الأعلى ، الذي لا شيء أعلى منه ، والأعواض والدرجات دونه، وهو يعلم أنه إذا حصل له فهناك كل عوض ودرجة عالية .

وأما نحوها «نحو الذات » فيريد به : أن صاحبها لا يقتصر على شهود الأفعال والأسماء والصفات، بل الذات الجامعة لمتفرقات الأسماء والصفات والأفعال [١] .

لا ينهض القلب إلا حين يدفعه ... عزم الرجال إذا ما استيقظ فيه

والحب يخترق الغبراء مندفعًا ... إلى السماء إذا هبت تناديه

والقيد يألفه الأموات ما لبثوا ... أما الحياة فيبليها وتبليه

سأل رجل بلالاً مولى أبي بكر رضي الله عنه فقال له : من سبق ؟ قال : سبق المقرَّبون ، قال : إنما أسألك عن الخيل ؟ قال : وأنا أجيبك عن الخير [٢] .

---

(١) انظر « مدارج السالكين » (٣/ ٥ ، ٦) ط. دار الحديث .

(٢) انظر « البيان والتبيين » (٢/ ٢٨٢) ط. الفكر .



الفصل الرابع

بعض المجالات التي تزكي النفس

الفصل الرابع

بعض المجالات التي تزكي النفس

أولا : طلب العلم

ولقد افتتحنا مجالات تزكية النفوس ، بطلب العلم ، لأن العلم هو الأساس، وهو الركيزة التي عليها يرتكن الدين ، فبدون العلم لن يستطيع أحدٌ أن يقول شيئًا ولا أن يعمل شيئًا وكما ذكرنا آنفًا أن العلم هو مصحح النية المصححة للعمل .

ولقد صنف البخاري بابًا سماه « باب العلم قبل القول والعمل » [1] .

وفي هذه الصفحات سوف نتناول صوراً مشرقة في طلب العلم ، واللائي تمتع بهن السلف الصالح ، ورحم الله من قال فأجاد :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهلــه ... أجسامهم قبل القبور قبـــور

وأرواحهم في وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشور

وقال ابن القيم :

والجهل داءٌ قاتل وشفـــاؤه ... أمران في التركيب متفقان

---

(١) الإمام البخاري هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري . اتفق جمهور العلماء أن صحيحه هو أصح الكتب بعد كتاب الله . قال البخاري : أحفظ مائة ألف حديث صحيح ، ومائتي ألف حديث غير صحيح . انظر ترجمته في « سير أعلام النبلاء » (٨/ ٢٣٤ ـ٢٥٤) ، وتذكرة الحفاظ (٢/ ١٢٢) ،وطبقات الحنابلة (١/ ٢٧١ ـ ٢٨٠) وهدي الساري (٨) ، والبداية والنهاية (١١/ ٢٤) ، وجامع الأصول (١/ ١٠٨) ، وطبقات ابن سعد (٢٤٨) ، وتاريخ دمشق (٣٧/ ١١٠) والأعلام (٦/ ٢٥٨) .

نص من القرآن أو من سنة وطبيب ذاك العالم الرباني

قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

ويقول ﷺ : « **ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم** » [١] .

وقال ﷺ : « **إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير** » [٢] .

وقال ﷺ : « **من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله به طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر** »[٣] .

قال الإمام أحمد بن حنبل : الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب ؛ لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين ،

---

(١) **الحديث حسن** : أخرجه الترمذي (٢٣٢٣) وقال حديث حسن ، وابن ماجه (٤١١٢) ولا بأس بإسناده وعزاه العجلوني في « الكشف » (١/ ٤٩٦) للطبراني في «الأوسط» عن ابن مسعود ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٥٧) و (٧/ ٩٠) والضياء عن جابر، وذكره المنذري في « الترغيب » (١/ ٩٨) ، وفي « الكنز » (٦٠٨٣ ، ٦٠٨٤، ٦٠٨٨) ، والسيوطي في « الدر المنثور » (٤/ ٢٥٦) .

(٢) **الحديث صحيح** : أخرجه الترمذي (٢٦٨٦) وقال حديث حسن .

(٣) **الحديث صحيح** : أخرجه أبو داود (٣٦٤١) و(٣٦٤٢) ، والترمذي في « سننه » (٢٦٨٣) وابن ماجه (٢٢٣) ، وابن حبان في « صحيحه » (٨٠) وصححه .

والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس .

قال ابن شهاب : العلم ذكر يحبه ذكورة الرجال ويكرهه مؤنثوهم [١] .

وقال سابق البربري :

والعلم يجلو العمي عن قلب صاحبه   كما يجلي سواد الظلمة القمرُ

وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلهـــا   ولا البصير كأعمى ما له بصرُ

وقال سالم بن أبي الجعد : اشتراني مولاي بثلاثمائة درهم وأعتقني ، فقلت بأي شيء أحترف ؟ فاحترفت بالعلم فما تمت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائرًا ولم آذن له [٢] .

وقال علي رضي الله عنه : العالم أفضل من الصائم المجاهد ، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه وقال :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهـــم   على الهدى لمن استهـــدى أدلاء

وقدر كلِّ امرئ ما كان يحســنه   والجاهلون لأهل العلم أعـــداء

ففز بعلم تعش حيًا به أبـــــدًا   فالناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ : من شرف العلم أن كل من نسب إليه ولو حتى في شيء حقير فرح، ومن رفع عنه حزن [٣] .

وقال الشافعي أيضًا : طلب العلم أفضل من النفل [٤] .

وكان الشافعي ـ رحمه الله ـ يقسم الليل ثلاثة أجزاء : ثلثًا للعلم ، وثلثًا للعبادة ، وثلثًا للنوم .

---

(١) انظر « جامع بيان العلم وفضله » (١/ ٢٥١) لابن عبد البر ـ رحمه الله ـ .
(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (١/ ٤٨) ط. المنار .
(٣) انظر « إحياء علوم الدين » (١/ ٤٧ ـ ٤٩) ط. المنار ـ بتحقيقي .
(٤) المصدر السابق .

وقال الربيع :كان الشافعي رحمه الله يختم القرآن في رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة [١] .

صفحات مشرقة من سير السلف الصالح في طلب العلم :

١ ـ سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ :

قال سعيد بن جبير : ربما أتيت ابن عباس ، فكتبت في صحيفتي حتى أملأها ، وكتبت في نعلي حتى أملأها ، وكتبت في كفي ، وربما أتيته فلم أكتب حديثًا حتى أرجع ، لا يسأله أحد عن شيء [٢] .

ويقول أيضًا : كنت أسير مع ابن عباس في طريق مكة ليلاً ، وكان يحدثني بالحديث ، فأكتبه في واسطة الرحل ، حتى أصبح فأكتبه .

٢ ـ محمد بن شهاب الزهري :

يُعد أول من دون الحديث وكتبه .

قال أبو الزناد : كنا نطوف مع الزهري على العلماء ، ومعه الألواح والصحف، يكتب كل ما يسمع .

قال عنه ابن أخيه :جمع عمي القرآن في ثمانين ليلة !!!

ويقول : كنت أخدم عُبيد الله بن عبد الله ، حتى إني كنت أستسقي له الماء المالح ، وكان يقول لجاريته : من بالباب ؟ فتقول : غلامه الأعمش .

وقال يعقوب بن عبد الرحمن : إن الزهري كان يبتغي العلم من عروة وغيره، فيأتي جارية له ، وهي نائمة ، فيوقظها ، يقول لها : حدثني فلان بكذا، وحدثني فلان بكذا ، فتقول : ما لي ولهذا ؟ فيقول : قد علمت أنك لا تنتفعي به ، ولكن سمعت الآن ، فأردت أن أستذكره [٣] .

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٣٣٥) ط. مؤسسة الرسالة .

(٣) انظر « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٣٣٤) ط. مؤسسة الرسالة .

قال إبراهيم بن أدهم : إن الله تعالى يدفع البلاء عن هذه الأمة برحلة أصحاب الحديث [١] .

قال يزيد بن هارون : قلت لحماد بن زيد : يا أبا إسماعيل ، هل ذكر الله عز وجل أصحاب الحديث في القرآن ؟ فقال : بلى ، ألم تسمع إلى قوله : ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

وكان علي بن معبد إذا رأى أصحاب الحديث ، يقول : شعثةٌ رؤوسهم ، دنسةٌ ثيابهم، مغبرة وجوههم، إن لم يكن مع هذا ثواب ، فهذا والله العقاب[٢] .

٣ ـ شعبة بن الحجاج أبو بسطام :

قال رحمه الله : من طلب الحديث أفلس ، بعت طست أمي بسبعة دنانير .

وكانت ثيابه كلون التراب ، لانشغاله بالعلم .

وقال عنه الإمام أحمد : شعبة أمة وحده في هذا الشأن .

وقال الشافعي : لولا شعبة ما عُرف الحديث بالعراق .

قال أحمد بن حنبل : أقام شعبة على الحكم بن عُتيبة ثمانية عشر شهراً حتى باع جذوع بيته . انظروا رحمكم الله يبيع جذوع بيته من أجل الحديث !!!

وعن نصر بن حماد قال : كنا بباب شعبة نتذاكر الحديث ، فقلت : ثنا إسرائيل عن أبي إسحاق ، عن عبد الله بن عطاء ، عن عقبة بن عامر : كنا في عهد رسول الله ﷺ نتناوب رعاية الإبل ، فرحت ذات يوم ، ورسول الله جالس، وحوله أصحابه ، فسمعته يقول : « **من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم دخل المسجد، فصلى ركعتين واستغفر الله غفر الله له** » .

قال : فما ملكت نفسي أن قلت : بخ بخ، قال : فجذبني رجل من خلفي،

(١) انظر « شرف أصحاب الحديث » (ص/ ٦٠) ط. الفكر .
(٢) انظر المرجع السابق .

فالتفت ، فإذا عمر بن الخطاب ، فقال يا ابن عامر ، الذي قال قبل أن تجيء أحسن ، قلت : ما قال فداك أبي وأمي ؟ قاك : قال : « **من شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فُتحت له ثمانية أبواب من الجنة من أيها شاء دخل** » قال : فسمعني شعبة . فخرج إليّ فلطمني لطمة ، ثم دخل ثم خرج فقال : ما له يبكي؟ فقال عبد الله بن إدريس : لقد أسأت إليه! فقال : أما تسمع ما يُحدث عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الله بن عطاء عن عقبة بن عامر ؟ وأنا قلت لأبي إسحاق : أسمع عبد الله بن عطاء من عقبة بن عامر ؟ قال : لا وغضب .

وكان مسعر بن كدام حاضراً ، فقال لي مسعر : أغضبت الشيخ ، فقلت له: ماله؟ ليُصحِّحنَّ لي هذا الحديث أو لأسقطن حديثه ، فقال مسعر : عبد الله بن عطاء بمكة ، قال شعبة : فرحلت إليه، لم أرد الحج ، وإنما أردت الحديث ، فلقيت عبد الله بن عطاء فسألته ، فقال: سعد بن إبراهيم حدثني ، فقال لي مالك ابن أنس : سعد بن إبراهيم بالمدينة لم يحج هذا العام ، فدخلت المدينة ، فلقيت سعد بن إبراهيم فسألته ، فقال: الحديث من عندكم ، زياد بن مخراق حدَّثني ، فقلت : أي شيء هذا الحديث !! بينا هو كوفي صار مكيًا ، صار مدنيًا ، صار بصريًا ، فدخلت البصرة، فلقيت زياد بن مخراق فسألته ، فقال : ليس هذا من بابك ، قلت : بلى، قال : لا ، تريده ؟ قلت : أريده ، قال : شهر بن حوشب: حدثني عن أبي ريحانة عن عقبة بن عامر ، قال : فلما ذكر لي شهراً ، قلت : دمَّر على هذا الحديث ، لو صحَّ لي هذا الحديث ، كان أحب إلى من أهلي ومن مالي ومن الدنيا كلها (١) .

انظر يا أخي رحمك الله إلى فعل الرجال ، ذهب من الكوفة إلى مكة ومن مكة إلى المدينة ومن المدينة إلى البصرة ، كل هذه الرحلات من أجل حديث

(١) انظر « المستدرك » (١/ ٩٧) للإمام الحاكم و« الرحلة » (ص/ ١٤٨ ـ ١٥٢) للخطيب. ط. العلمية ، ولكن الحديث صح عن عقبة بن عامر من طريق آخر عند مسلم في « صحيحه » . ولله الحمد .

واحدًا!!!

ويظهر شعبة ـ رحمه الله ـ أن الحديث الواحد خير عنده من ماله ومن الحياة كلها .

علم الحديث أجل السُّؤل والوطر فاقطع به العيش تعرف لذة العمر
وانقل رحالك عن مغناك مُرتحلاً لكي تفوز بنقل العلم والأثر
ولا تقل عاقني شغل فليس يرى في الترك للعلم من عُذرٍ لمعتذر
وأي شغل كمثل العلم تطلبه ونقل ما قد رووا عن سيد البشر
لا تفخرن بدنيا لا بقاء لها وبالعفاف وكسب العلم فافتخر
يفنى الرجال ويبقى علمهم لهم ذكرًا يجدد في الآصال والبكر

٤ ـ سفيان الثوري :

قال إبراهيم الآجري : من طلب العلم بالفاقة ورث الفهم .

حدَّث سفيان بن عيينة ، قال : جاع سفيان الثوري جوعًا شديدًا ، مكث ثلاثة أيام لا يأكل شيئًا ، فمر بدار فيها عرس ، فدعته نفسه إلى أن يدخل ، فعصمه الله ، ومضى إلى منزل أخته ، فأتته بقرص فأكله ، وشرب ماء ، فتجشأ، ثم قال :

سيكفيك عما أُغلق الباب دونه وضفٌ به الأقوام مِلحٌ وجردق[1]
وتشرب من ماءِ فراتٍ وتتغذى تُعارض أصحاب الثريد الملبق
تجشأ إذا ما هم تجشئوا كأنما ظلت بأنواع الخبيص [2] تفتق

قال أبو شهاب الحنَّاط : بعثت أخت سفيان الثوري معي بجراب إلى سفيان ، وهو بمكة فيه كعك وخشكنانج ، فقدمت مكة ، فسألت عن سفيان ، فقيل : إنه

(١) الرغيف من الخبز .
(٢) الخبيص : حلوى يخلط فيها التمر بالسمن .

ربما يقعد دبر الكعبة مما يلي باب الحناطين ، قال أبو شهاب : فأتيته هناك ـ وكان لي صديقًا ـ فوجدته مستلقيًا ، فسلمت عليه ، فلم يُسائلني تلك المساءلة ، ولم يُسلم عليّ كما كنت أعرف منه ، فقلت له : إن أختك بعثت إليك معي بجراب فيه كعك وخشكنانج ، قال : فعجل به عليَّ ، واستوى جالسًا ، فقلت : يا أبا عبد الله ، أتيتك بجراب كعك لا يساوي شيئًا جلست وكلمتني ؟ فقال : يا أبا شهاب ، لاتلمني ، فإن لي ثلاثة أيام لم أذق فيها ذوقًا ! قال أبو شهاب : فعذرته [١].

قلت للفقر أين أنت مقيم   قال لي في عمائم الفقهاء
إن بيني وبينهم لإخـاء   وعزيز عليَّ قطع الإخـاء

قال شعيب بن حرب : إني لأحسب أنه يُجاء غدًا بسفيان حجة من الله على خلقه ، يقول لهم : لم تدركوا نبيكم ، قد رأيتم سفيان .

قال الإمام الذهبي : يقال إن عدد شيوخه ستمائة شيخ ، وأما الرواة عنه، فخلف .

ذكر أبو الفرج بن الجوزي أنهم أكثر من عشرين ألفًا ، وهذا مدفوع ممنوع، فإن بلغوا ألفًا ، فباجهد [٢] .

قال الأشجعي : سمعت من الثوري ثلاثين ألف حديث .

قال مسلم في « صحيحه » : قال يحيى بن أبي كثير لا يُنال العلم براحة الجسم ، وقد قيل : « من طلب الراحة ترك الراحة » [٣] .

٥ ـ الإمام مالك بن أنس :

قال ابن عيينة : مالكٌ عالم أهل الحجاز ،وهو حجة زمانه .

(١) انظر « علو الهمة » (١/ ١٩٠) ط. مؤسسة الرسالة .
(٢) انظر « سير أعلام النبلاء » (٧/ ٢٤٥) ط. مؤسسة الرسالة .
(٣) انظر « علو الهمة » (ص/ ١٤٣) ط. العقيدة للتراث .

وقال الشافعي : إذا ذُكِرَ العلماء فمالك النجم (١) .

قال مالك : ما أجبت في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني : هل تراني موضعًا لذلك ؟ سألت ربيعة ، وسألت يحيى بن سعيد فأمراني بذلك .

قيل إن أمَّ الإمام مالك حملت به ثلاث سنوات (٢) .

قال مطرف : كان الإمام مالك إذا أتاه الناس خرجت إليهم الجارية فتقول لهم: يقول لكم الشيخ تريدون الحديث أم المسائل ؟ فإن قالوا المسائل خرج إليهم وأفتاهم ، وإن قالوا الحديث قال لهم اجلسوا ، ودخل مغتسله فاغتسل وتطيب ولبس ثيابًا جددًا وتعمم ووضع على رأسه طويلة وتلقى له المنصة ، فيخرج إليهم وعليه الخشوع ويوضع عود فلا يزال يتبخر حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ. فلدغته عقرب ست عشرة مرة ومالك يتغير لونه ويصفر ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ فلما فرغ من المجلس وتفرق الناس ، قلت : يا أبا عبد الله لقد رأيت منك اليوم عجبًا ، فقال نعم ، إنما صبرت إجلالا لحديث رسول الله ﷺ (٣) .

وقال أبو زُرعة : لو حلف رجل بالطلاق على أحاديث مالك التي في الموطأ أنها صحاح كلها لم يحنث وكان مالك لا يدخل الخلاء إلا كل ثلاثة أيام مرة ويقول: والله قد استحيت من كثرة ترددي على الخلاء ، ويرخي الطيلسان على رأسه حتى لا يرى ولا يُرى (٤) .

---

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (٨/ ١٠٨) ط. الرسالة .

(٢) انظر ابن سعد في « الطبقات » وفي « تنوير الحوالك شرح موطأ مالك » (ص/ ٣) للسيوطي ـ رحمه الله ـ .

(٣) انظر « تنوير الحوالك شرح موطأ مالك » (٢/ ٨٦) للسيوطي ـ رحمه الله ـ.

(٤) المصدر السابق (٢/ ١٦٧ ـ ١٦٨) وقال البخاري : أصح الأسانيد : مالك عن نافع عن ابن عمر ، وتسمى السلسلة الذهبية . ألف موطأ ـ رحمه الله ـ في أربعين سنة ، وعرضه على سبعين فقيهًا من أهل المدينة ، وقال الإمام مالك : ما بت ليلة إلا رأيت رسول الله ﷺ . انظر « تنوير الحوالك » (ص/ ٣) وراجع ترجمته في : تذكرة الحفاظ (١/ ٢٠٧) والأعلام (٢/ ٣٠٢) ودول الإسلام (١/ ١١٥ ، ١١٦) =

وقيل له : كيف أصبحت ؟ قال: في عمر ينقص وذنوب تزيد .

وقال مالك : إني لأفكر في مسألة منذ بضع عشرة سنة ما اتفق لي فيها رأي إلى الآن .

وذكر الإمام أحمد مالكًا ، فقدمه على الأوزاعي والثوري والليث وحمَّاد والحكم في العلم ، وقال : هو إمام في الحديث والفقه .

قال ابن القاسم :أفضي بمالك طلب العلم إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه ثم مالت عليه الدنيا بعد .

وقال مالك : لا ينال هذا الأمر حتى يُذاق فيه طعمُ الفقر .

٦ ـ شيخ الإسلام أبو نعيم الفضل بن دكين :

قال الإمام أحمد : أبو نعيم أثبت من وكيع ، وقال إذا مات أبو نعيم ، صار كتابه إمامًا ، إذا اختلف الناس فزعوا إليه [(١)] .

قال أبو حاتم : لم أر من المحدثين من يحفظ ويأتي بالحديث على لفظ واحد لا يُغيره سوى قبيصة وأبي نعيم في حديث الثوري ،وكان أبو نُعيم يحفظ حديث الثوري حفظًا جيدًا [(٢)] .

قال أحمد بن منصور الرمادي : خرجت مع أحمد ويحيى إلى عبد الرزاق خادمًا لهما ، قال : فلما عدنا إلى الكوفة ، قال يحيى بن معين : أريد أن أختبر أبا نعيم ، فقال أحمد : لا تُرد ، فالرجل ثقة ، قال يحيى : لابد لي ، فأخذ ورقة ، فكتب فيها ثلاثين حديثًا ، وجعل على رأس كل عشرة منها حديثًا ليس من حديثه ، ثم إنهم جاؤوا إلى أبي نعيم ، فخرج ، وجلس على دكان طين ، وأخذ أحمد بن حنبل ، فأجلسه عن يمينه ، ويحيى عن يساره ، وجلست أسفل

= وتهذيب التهذيب (١٠/ ٥) والبداية والنهاية (١٠/ ١٧٤) .

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (١٠/ ١٤٧) ط. مؤسسة الرسالة .

(٢) انظر « الجرح والتعديل » (٧/ ٦١ ، ٦٢) .

الدكان ، ثم أخرج يحيى الطبق ، فقرأ عليه عشرة أحاديث ، فلما قرأ الحادي عشر، قال أبو نعيم : ليس هذا من حديثي اضرب عليه ، ثم قرأ العشر الثانية ، وأبو نعيم ساكت ، فقرأ الحديث الثاني ، فقال أبو نعيم : ليس هذا من حديثي ، فاضرب عليه ، ثم قرأ العشر الثالثة ، ثم قرأ الحديث الثالث ، فتغير أبو نعيم ، وانقلبت عيناه ، ثم أقبل على يحيى ، فقال : أما هذا ـ وذراع أحمد بيده ـ فأورع من أن يعمل مثل هذا ، وأما هذا ـ يريدني ـ فأقل من أن يفعل ذلك ، ولكنّ هذا من فعلك يا فاعل ، وأخرج رجله ، فرفس يحيى ، فرمى به من الدكان ، وقام فدخل داره ، فقال أحمد بن حنبل ليحيى : ألم أمنعك وأقل لك : إنه ثبت ؟ قال: والله ، لرفسته لي لأحب إلي من سفرتي [١] .

بلغ به الحرص على العلم والاهتمام به والشغل به عن السعي على الكسب أنه ما كان يجد الطعام لأهل بيته !

يقول أبو نعيم : يلومونني على الأخذ ، وفي بيتي ثلاثة عشرة نفسًا ،وما في بيتي رغيف [٢] . والأخذ هنا من الإمام لا من الطلبة كما نص على ذلك الذهبي[٣].

سهري لتنقيح العلوم ألذ لي	من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طربًا لحل عويصـــة	أشهى وأحلى من مُدامة ساقي
وصرير أقلامي على أوراقها	أحلى من الدوكاه والعشـــاق
ألذ من نقر الفتاة لدفعهـــا	نقري لألقي الرمل عن أوراقي
يا من يحاول بالأماني رتبتي	كـم بين مُشتعل وآخـــر راقي

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (١٠/ ١٤٩) ط. مؤسسة الرسالة ومناقب أحمد (ص/٧٩، ٨٠) لابن الجوزي .
(٢) انظر « سير أعلام النبلاء » (١٠/ ١٥٢ ، ١٥٣) ط. مؤسسة الرسالة .
(٣) المصدر السابق .

أألبيت سهران الدُّجى وتبيته نومًا وتبغي بعد ذاك لحاقي[١]

لله درهم ، قوم تركوا الدنيا وأقبلوا على الآخرة ، أما طلبة اليوم فشغلهم الشاغل الوظيفة وبكم تأتي ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

٧ ـ يحيى بن معين :

قال الإمام أحمد بن حنبل : كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس بحديث .

وقال علي بن المديني : ما أعلم أحدًا كتب ما كتب يحيى بن معين .

قال أحمد بن عقبة : سألت يحيى بن معين : كم كتبت من الحديث ؟ قال : كتبت بيدي هذه ستمائة ألف حديث ـ يعني بالمكرر ـ [٢] .

وخلَّف يحيى بن معين من الكتب مائة قمطر وأربعة عشر قمطرًا وأربعة حباب (الجرة) وشرابية مملوءة كتبًا .

قال يحيى الأحول : تلقينا يحيى بن معين مقدمة من مكة ، فسألناه عن الحسين بن حبان ؟ فقال : أحدثكم أنه كان بآخر رمق ، قال لي : يا أبا زكريا ، أترى ما مكتوب على الخيمة ؟ قلت : ما أرى شيئًا ، قال : بلى ، أرى مكتوبًا: يحيى بن معين يقضي أو يفصل بين الظالمين ، قال : ثم خرجت نفسه .

وقال ـ رحمه الله ـ : كتبت بيدي ألف ألف حديث.

ذكروا عنده حديث « **من عشق ، وعفَّ وكتم وصبر ، غفر الله له وأدخله الجنة** » فقال يحيى بن معين : والله لو كان عندي فرسٌ ورمح لغزوت سويدًا في هذا الحديث .

مات ـ رحمه الله ـ بالمدينة فأخرجوا له الأعواد التي غُسل عليها رسول الله

---

(١) « علو الهمة » (١/ ٢٠) ط. الرسالة .

(٢) انظر « سير أعلام النبلاء » (١١/ ٨٩ ، ٩٠) .

ﷺ ، وحمل على سرير النبي ﷺ ، ورجل ينادي بين يديه : هذا الذي كان ينفي الكذب عن حديث رسول الله ﷺ .

هؤلاء سلموا لأنهم صبروا عن المعاصى ، قال ابن خشرم : ما رأيت بيد وكيع كتابًا قط ، إنما هو حفظ فسألته عن أدوية الحفظ ـ اسمعوا أيها الطلبة والطالبات ، اسمعوا يا من لا تقدرون على مذاكرة كتاب أو اثنين ـ فقال وكيع : إن علمتك الدواء استعملته ؟ قلت : إي والله ، قال : ترك المعاصي ، ما جربت مثله للحفظ .

يا طالب العلم لا تعدل به أحداً ... قد كنت في غـفلة منـه وفي دَدَنِ
بقية الناس من هــذا يُعادلـــه ... في سلف الدهر أو في غاية الزمن
يُلقى إليه رفاق الناس عامـــدة ... على المحامل والأقتـاب والسفــن

٨ ـ إمام أهل السنة أحمد بن حنبل :

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ : خرجت من بغداد فما خلَّفت بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل .

قال يحيى بن معين : أرادوا أن أكون مثل أحمد ،والله لا أكون مثله أبداً.

قال صالح بن أحمد بن حنبل : رأى رجل مع أبي محبرةً ، فقال له : يا أبا عبد الله ، أنت قد بلغت هذا المبلغ ، وأنت إمام المسلمين ، فقال : مع المحبرة إلى المقبرة [١] .

وقال : أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر .

قال أحمد بن منيع : سمعت من جدي يقول : مرَّ أحمد بن حنبل جائيًا من الكوفة ، وبيده خريطة فأخذت بيده ، فقلت : مرةً إلى الكوفة ، ومرةً إلى البصرة ، إذا كتب الرجل ثلاثين ألف حديث لم يكفه ؟ فسكت ، ثم قلت : ستين ألفًا ؟ فسكت ، فقلت : مائة ألف ؟ قال : حينئذ يعرف شيئًا ، قال أحمد

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (١/ ١٩٥ ـ ١٩٧) ط. مؤسسة الرسالة .

ابن منيع : فنظرنا ، فإذا أحمد كتب ثلاثمائة ألف ، عن بهز بن أسد وعفان ، وأظنه قال : وروح بن عبادة (١) .

قال ابن الجوزي : طاف أحمد بن حنبل الدنيا مرتين حتى جمع المسند .

ويقول الحافظ ابن كثير : سرقت ثيابه وهو باليمن ، فجلس في بيته وردّ عليه الباب ، وفقده أصحابه ، فجاؤوا إليه فسألوه فأخبرهم ، فعرضوا عليه ذهبًا فلم يقبله ، ولم يأخذ منهم إلا دينارًا واحدًا ليكتب لهم به (أي أجر نفسه لينسخ لهم بالدينار) فكتب لهم بالأجر ، رحمه الله .

أي إمام هذا يرفض الذهب ! ويؤجر نفسه يكتب بالأجر ! أين دعاة المسلمين من هذا ، الذين يركبون المرسيدس والعيون ، الذين سكنوا في الفيلات وكتبوا عليها « فيلا الشيخ فلان » ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله .

لقد شغل الإمام أحمد طلب العلم عن الزواج فأخره ، وتزوج في سن الأربعين .

قال أبو إسحاق الجوزجاني : كان أحمد بن حنبل يصلي بعبد الرزاق، فسها فسأل عنه عبد الرزاق ،فأخبر أنه لم يأكل منذ ثلاثة أيام شيئًا (٢) .

قناديل دين الله يسعى بحملها رجال بهم يحيا حديث محمد
هم حملوا الآثار عن كل عالم تقي صدوق فاضل متعبد
محابرهم زُهر تُضيء كأنها قناديل حبر ناسك وسط مسجد
تُساق إلى من كان في الفقه عالمًا ومن صنَّف الأحكام من كل مسند(٣)

(١) انظر « مناقب الإمام أحمد بن حنبل » (ص/ ٢٨) لابن الجوزي ـ رحمه الله ـ .
(٢) انظر « علو الهمة » (١/ ٢٤٩، ٢٥١) ط. الرسالة .
ألَّف ـ رحمه الله ـ المسند الذي يشتمل على نحو ثلاثين ألف حديث ، اختارها من سبعمائة وخمسين ألفًا عن قرابة ثمانمائة من الصحابة ، وراجع « طبقات الحفاظ » (١٨٦) و«البداية والنهاية » (١٠/ ٣٤٠) و« حلية الأولياء » (٩/ ١٦١) و«مفتاح السعادة » (٢/ ٢٣٢) و« تهذيب الأسماء » (١١٠) و« صفة الصفوة » (٢/ ٣٣٦) و« مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي .
(٣) المصدر السابق .

مواقف مشرقة لأئمة السلف

الإمام ابن عقيل الحنبلي :

يقول : « إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري ، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة أو مناظرة ، وبصري عن مطالعة ، أعملتُ فكري في حال راحتي وأنا منطرح ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطّره ، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عمر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة . . . » .

صنف كتاب « الفنون » الذي حوى على معظم العلوم من « حديث ، وفقه، وأصول الفقه ، والتفسير ، والتاريخ . . . » .

قال الذهبي : لم يصنف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب ، حدثني من رأى من المجلد الفلاني بعد الأربعمائة . قال ابن رجب الحنبلي : وقال بعضهم : وهو ثمانمائة مجلدة .

أين علماء اليوم ؟ من يكتب كُتيبًا يقول : لقد آسيت فيه وسهرت ، فماذا يقول صاحب الثمانمائة مجلدة وله تصانيف أكثر من هذا .

الإمام ابن الجوزي :

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : سمعت جدي يقول على المنبر في آخر عمره : كتبت بأصبعي هاتين ألفي مجلد .

يقول الإمام ابن تيمية : كان الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي كثير التصنيف والتأليف ، وله مصنفات في أمور كثيرة ، حتى عددتها فرأيتها أكثر من ألف مصنف ، ورأيت بعد ذلك ما لم أره .

وقال القمي : أن بُراية أقلام ابن الجوزي التي كتب بها الحديث جُمعت فحصل منها شيء كثير ، وأوصى أن يُسخّن بها الماء الذي يُغسل به بعد موته ،

ففعل ذلك فكفت وفضل منها .

قال ابن رجب الحنبلي : لم يترك فنًا من الفنون إلا وله فيه مصنَّف ، وسئل عن عدد تآليفه ، فقال : زيادة على ثلاثمائة وأربعين مصنفًا ،منها ما هو عشرون مجلدًا ، ومنها ما هو كراس واحد .

قال الذهبي : وما علمت أحدًا من العلماء صنّف ما صنَّف هذا الرجل [١] .

شيخ الإسلام مجد الدين ، أبو البركات ، ابن تيمية :

يقول ابن رجب الحنبلي : قال شيخنا أبو عبد الله ابن القيم : حدثني أخو شيخنا عبد الرحمن بن عبد الحليم بن تيمية ، عن أبيه ، قال : كان الجد ـ مجد الدين ـ إذا دخل الخلاء يقول لي : اقرأ في هذا الكتاب ، وارفع صوتك حتى أسمع .

قال ابن رجب : يشير بذلك إلى قوة حرصه على العلم، وحفظه لأوقاته[٢].

شيخ الإسلام عُبيد بن يعيش :

يروي عمَّار بن رجاء : سمعت عُبيد بن يعيش يقول : أقمت ثلاثين سنة ما أكلت بيدي بالليل ، كانت أختي تلقمني وإنما أكتب الحديث [٣] .

الفقيه ابن النفيس :

يقول برهان الدين إبراهيم الرشيدي : كان العلاء بن النفيس إذا أراد التصنيف توضع له الأقلام مبرِّية ، ويدير وجهه إلى الحائط ، ويأخذ في التصنيف إملاء من خاطره ، ويكتب مثل السيل إذا انحدر فإذا كلَّ القلم وخفيَ رمى به وتناول غيره،

---

(١) انظر ترجمته في كتابنا « الأخبار من تراجم الأخيار » لم يطبع بعد .

(٢) انظر « دليل طبقات الحنابلة » (٢/ ٢٤٩ ـ ٢٥٢) ،وفي كتابنا « الأخبار من تراجم الأخيار » .

(٣) انظر « الجامع لأخلاق الراوي » (ص ٢/١٧٨) .

لئلا يضيع عليه الزمان في بري القلم [(١)] .

الإمام ابن جرير الطبري :

كان ـ رحمه الله ـ إذا أكل نام في قميص الأكمام ، ثم يقوم ، فيصلي الظهر في بيته ، ويكتب في تصنيفه إلى العصر ، ثم يخرج فيصلي العصر ، ويجلس للناس يُقرئ ويُقرأ عليه إلى المغرب ثم يجلس للفقه والدرس بين يديه إلى العشاء الآخرة ، ثم يدخل منزله ، وقد قسم ليله ونهاره في مصلحة نفسه ودينه والخلق.

وقال الخطيب البغدادي : سمعت السِّمسمي يقول : أن ابن جرير مكث أربعين سنة ، يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة .

ومن أقواله :

إذا أعسرت لم يعلـم رفيـقي   وأُستغنى فيستغـني صديـقـي
حيائي حافظ لي ماء وجهـي   ورفقي في مطالبتي رفيـــقي
ولو أني سمحت ببذل وجهي   لكنت إلى الغنى سهل الطريق

قال ابن خزيمة : ما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير .

ومن أجل كتبه « التفسير الكبير » قال عنه النووي: كتاب ابن جرير في التفسير : لم يصنف أحد مثله . وقال أبوحامد الإسفرائيني : لو رحل رجل إلى الصين حتى يحصل على تفسيره لم يكن ذلك كثيراً .

الإمام مسلم بن ورد القشيري صاحب الصحيح :

صنف صحيحه من زهاء ثلاثمائة ألف حديث :

قال الحافظ أبو عمرو بن الصلاح : وكان لموته سبب غريب ، نشأ من غمرة فكرية علمية ، فقرأ بنيسابور فيما انتخبه من « تاريخها » للحاكم النيسابوري على الشيخ الزكي ، قال أحمد بن سلمة ـ رفيق مسلم في الرحلة : عُقد لأبي الحسين مسلم بن الحجاج مجلس للمذاكرة ، فذكر له حديث لم يعرفه ، فانصرف إلى منزله ، وأوقد السراج ، وقال لمن في الدار : لا يدخلنَّ أحدٌ منكم هذا البيت

(١) انظر « الدرر الكامنة » (٦/ ٨٥) ط. العلمية .

فقيل له : أُهديت لنا سلة فيها تمرٌ ، فقال : قدِّموها إليّ ، فكان يطلب الحديث، ويأخذ تمرة تمرةً يمضغها ، فأصبح وقد فني التمر ! ووجد الحديث .

قال الحاكم : زادني الثقة من أصحابنا أنه منها مرض ومات [1] .

الإمام محمد بن إسماعيل البخاري :

قال أحمد بن عدي الحافظ : سمعتُ عدة من مشايخ بغداد يقولون : إن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد ، فسمع به أهل الحديث ، فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه ، فعمدوا إلى مائة حديث ، فقلبوا متونها وأسانيدها ، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر ، وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها إلى عشرة أنفس، لكل رجل عشرة أحاديث ، وأمروهم إذا حضر المجلس أن يُلقوا ذلك على البخاري وأخذوا الموعد للمجلس ، فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم ومن البغداديين .

فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة ، فسأل عن حديث من تلك الأحاديث ، فقال البخاري : لا أعرف ، فمازال يلقى عليه واحدًا بعد واحد، حتى فرغ والبخاري يقول : لا أعرفه ، وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ، ويقولون : فهم الرجل ، ومن كان لم يَدرِ القصة يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الحفظ .

ثم انتدب رجل من العشرة ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة ، فقال : لا أعرفه فسأله عن آخر فقال : لا أعرفه ، فلم يزل يلقي عليه واحدًا واحدًا حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول لا أعرفه .

ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة، والبخاري لا يزيدهم على : لا أعرفه، فلما عرف أنهم قد فرغوا ، التفت إلى الأول ، فقال : أما حديثك الأول فقلت كذا ، وصوابه كذا ،

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (١/ ٥٦٤) للذهبي ط. مؤسسة الرسالة .

وحديثك الثاني كذا وصوابه كذا ، والثالث والرابع على الولاء ، حتى أتم على تمام العشرة ، فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقر الناس له بالحفظ وأذعنوا له بالفضل (١) .

قال الحافظ ابن حجر : العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة .

وقال البخاري ـ رحمه الله ـ : صنفت كتاب « الاعتصام » في ليلة .

قال حاشد بن إسماعيل وآخر : كان أبو عبد الله البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام فلا يكتب ، حتى على ذلك أيام ، فقلنا نقول له إنك تختلف معنا ولا تكتب ، فما تصنع ؟ فقال لنا يومًا بعد ستة عشر يومًا : إنكما قد أكثرتما عليَّ وألححتما ، فاعرضا عليَّ ما كتبتما ، فأخرجنا إليه ما كان عندنا فزاد على خمسة عشر ألف حديث ، فقرأها كلها عن ظهر قلب ، حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه (٢) .

صحيح البخاري لو أنصفوه ... لما خُطَّ إلا بماء الذهب
هو الفرق بين الهدى والعمى ... هو السدُّ بين الفتى والعطب
أسانيد مثل نجوم السماء ... أما متون كمثل الشهب
به قام ميزان دين الرسول ... ودان به العجم بعد العرب

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (١٢/ ٤٠٩) ط. مؤسسة الرسالة ، ومقدمة فتح الباري (٥١٠ ، ٥١١) ط. السلفية .

(٢) انظر « طبقات الحنابلة » (١/ ٢٧٦ ، ٢٧٧) و« تاريخ بغداد » (٢/ ١٣ ـ ١٤) ط. العلمية . انظر ترجمته في « سير أعلام النبلاء » (٨/ ٢٣٤ ـ ٢٥٤) و(١٢/ ٤٠٩) ط. الرسالة و« تهذيب التهذيب » (٩/ ٤٧ ، ٤٨) و« هدى الساري » (٨) و«طبقات الحفاظ » (٢٤٨) و« تذكرة الحفاظ » (٢/ ١٢٢) و« جامع الأصول » (١/ ١٠٨) و« طبقات الحنابلة » (١/ ٣٧١ ـ ٣٨٠) و « تاريخ بغداد » (٢/ ٤ ـ ٦) و«تاريخ دمشق » (٣٧/ ١١٠) و« وفيات الأعيان » (٤/ ١٨٨) .

ثانيًا : التضحية بالنفس في نصرة الدين

إن الدعوة إلى الله ، هي أجل المهن ، ولكن يجب على كل داعية ألا يخشى إلا الله سبحانه وتعالى ويجب عليه ألا يخاف من ذي سلطان ما دام سلطان الله باقيا ، ولله الحمد فإن سلطان الله لا ينفد ولا يبيد البتة .

ودرجات الأمر بالمعروف :

الأولى : التعريف .

الثانية : الوعظ .

الثالثة : التخشين في القول.

الرابعة : المنع بالقهر في الحمل على الحق بالضرب [(١)] .

ومن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان** » [(٢)] .

يقول تعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿ **كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ [المائدة: ٧٩].

وقال تعالى : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٢/ ٥٠٧) بتحقيقي ط. المنار .

(٢) **الحديث صحيح** : أخرجه مسلم في « صحيحه » (٤٩)، والترمذي (٢١٧٣) ، وأبو داود (١١٤٠) ، وابن ماجه (٤٠١٣) ،والنسائي (٨/ ١١١) .

وأنت الذي من فضل ومن رحمة ... بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له : فاذهب وهارون فادعوا ... إلى الله فرعون الذي كان طاغيا
وقولا له : هل أنت سويت هذه ... بلا وتد حتى استقلت كما هيا ؟
وقولا له : أأنت رفعت هذه ... بلا عمد أو فوق ذلك بانيا ؟
وقولا له : هل سويت وسطها ... منيرا إذا ما جنك الليل هاديًا ؟
وقولا له : من يرسل الشمس غدوة ... فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا؟
وقولا له: من أنبت الحب في الثرى ... فيصبح منه العشب يهتز رابيا
ويخرج من حبه في رؤوسه ... ففي ذاك آيات لمن كان واعيا[1]

ويقول ﷺ : « **أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر** » [2] .

وقال ﷺ : « **خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام إلى رجل فأمره ونهاه في ذات الله فقتله على ذلك** » [3] .

وعن أبي عبد الله طارق بن شهاب البجلي الأحمسي رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ وقد وضع رجله في الغرز : أي الجهاد أفضل ؟ قال : « **كلمة حق عند سلطان جائر** » [4] .

---

(١) انظر « تفسير ابن كثير » (٤/ ١٠٢ ، ١٠٣) ط. الأندلس ، بيروت .

(٢) **الحديث حسن إن شاء الله** : بلفظ « **سلطان** » أخرجه الترمذي (٢١٧٥) وقال : حديث حسن ، وأبو داود (٤٣٤٤) ، وابن ماجه (٤٠١١) ولكن في إسناده : عطية العوفي : قال أبو حاتم : يكتب حديثه ، ضعيف ، وقال أحمد : ضعيف الحديث ، وقال النسائي وجماعة : ضعيف ، وقال الذهبي : تابعي شهير ضعيف . انظر «الميزان» (٤٧٦ ، ٤٧٧) برقم (٥٦٦٧) ط. الفكر . ولكن يقوي الحديث برواية طارق بن شهاب وسوف يأتي إن شاء الله .

(٣) **الحديث صحيح** : أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد . وصححه الشيخ الألباني وراجع « السلسلة الصحيحة » برقم (٣٧٤) ، و «صحيح الجامع» برقم (٣١٥٨) .

(٤) **الحديث صحيح** : أخرجه النسائي (٧ / ١٦١) ورجاله ثقات وحسنه المنذري في =

قال الإمام النووي : الغرز « بغين معجمة مفتوحة ثم راء ساكنة ثم زاي ، وهو ركاب كور الجمل إذا كان من جلد أو خشب ، وقيل : لا يختص بجلد أو خشب » .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل** » [(١)] .

صور مشرقة من تضحيات السلف الصالح

* بلال رضي الله عنه :

كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك ،وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم ، وهو يقول : أحدٌ ، أحدٌ ، ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها . رضي الله عنه وأرضاه [(٢)] .

* عبد الله بن حذافة السهمي :

أحد الصحابة الأبطال . أسرته الروم ، فجاؤوا به إلى ملكهم .

فقال له الملك : تنصَّر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي .

فقال له البطل : لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن

= «الترغيب » (٣/ ١٦٨) ،وقال النووي : رواه النسائي بإسناد صحيح .

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه مسلم في « صحيحه » (٥٠) .

(٢) انظر « تفسير ابن كثير » (٤/ ٢٨٨) ط. الأندلس بيروت .

أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت .

فقال : إذا أقتلك ، فقال : أنت وذاك .

فأمر به فصلب ، وأمر الرماة فرموه قريبًا من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم أمر بقدر - وفي رواية بقرة - من نحاس فأحميت وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر في هذه البقرة النحاسية فإذا هو عظام تلوح .

فعرض عليه فأبى ، فأمر به أن يلقى فيها ، فرفع في البكرة ليلقى فيها ، فبكى فطمع فيه ودعاه ، فقال البطل : إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر في الساعة في الله فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله .

وفي بعض الروايات : أنه سجنه ومنع منه الطعام والشراب أياما ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه ، ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال: أما إنه قد حل لي ، ولكن لم أكن أشمتك بي . فقال له الملك : فقبل رأسي وأنا أطلقك ، فقال : وتطلق معي جميع أسارى المسلمين ؟ قال : نعم ، فقبل رأسه، فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده .

فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة ،وأنا أبدأ ، فقام فقبل رأسه رضي الله عنه [1] .

*** سعيد بن جبير - رحمه الله - :**

كان الحجاج بن يوسف الثقفي من الولاة الظالمين الغاشمين ، وقد عمت سيئاته الأمة بأسرها .

كان خالد بن عبد الملك القسري واليا على مكة ، وقد خُبِّرَ بوجود سعيد بن

(١) قال ابن كثير - رحمه الله - : ذكره الحافظ ابن عساكر . وراجع « التفسير » (٤/ ٢٢٩) ط. الأندلس .

جبير في ولايته ، فأراد أن يتخلص منه ، فألقى القبض عليه واعتقله ، وأرسل إلى الحجاج الظالم ودخل الإمام على الظالم .

قال الحجاج : ما اسمك ؟

قال سعيد : سعيد بن جبير .

الحجاج : بل أنت شقي بن كسير .

قال سعيد : بل كانت أمي أعلم باسمي منك .

الحجاج : شقيت أمك وشقيت أنت .

قال سعيد : الغيب يعلمه الله .

الحجاج : لأبدلنك بالدنيا نارا تلظى .

قال سعيد : لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهًا .

الحجاج : فما قولك في محمد ؟

قال سعيد : نبي الرحمة وإمام الهدى .

الحجاج : فما قولك في عليّ أهو في الجنة أم في النار ؟

سعيد : لو دخلتها وعرفت من فيها ، عرفت أهلها .

الحجاج : فما قولك في الخلفاء ؟

سعيد : لست عليهم بوكيل .

الحجاج : فأيهم أعجب إليك ؟

سعيد : أرضاهم لخالقي .

الحجاج : فأيهم أرضى للخالق ؟

سعيد : علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم .

الحجاج : أحب أن تصدقني .

سعيد : إن لم أحبك لن أكذبك ؟

الحجاج : فما بالك لم تضحك ؟

سعيد : وكيف يضحك مخلوق خلق من طين والطين تأكله النار !!!

الحجاج : فما بالنا نضحك ؟

سعيد : لم تستو القلوب .

ثم أمر الحجاج بالذهب والفضة واللؤلؤ والزبرجد ، فجمعه بين يديه.

فقال سعيد : إن كنت جمعته لتتقي به فزع يوم القيامة فصالح وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، ولا خير في شيء من الدنيا إلا ما طاب وزكا .

ثم دعا الحجاج بالعود والناي ، فلما ضرب بالعود ونفخ بالناي بكى سعيد.

فقال الحجاج : ما يبكيك أهو اللعب ؟

قال سعيد : هو الحزن ، أما النفخ فذكرني يوما عظيمًا يوم ينفخ في الصور، وأما العود فشجرة قطعت من غير حق !!! وأما الأوتار فمن الشاة تبعث يوم القيامة!!!

فقال الحجاج : ويلك يا سعيد .

فقال سعيد : لا ويل لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة .

قال الحجاج : اختر يا سعيد أي قتلة أقتلك ؟

قال سعيد : اختر أنت لنفسك فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة .

قال الحجاج : أتريد أن أعفو عنك ؟

قال سعيد : إن كان العفو فمن الله ، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر .

قال الحجاج : اذهبوا به فاقتلوه ، فلما خرج ضحك فأخبر الحجاج بذلك ،

فردوه إليه .

قال الحجاج : ما أضحكك ؟

قال سعيد : عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك .

فأمر بالنطع فبسط .

وقال : اقتلوه .

قال سعيد : وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين .

قال الحجاج : وجهوا به لغير القبلة .

قال سعيد : فأينما تولوا فَثَمَّ وجه الله .

قال الحجاج : كبوه على وجه .

قال سعيد : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى .

قال الحجاج : اذبحوه .

قال سعيد : والسكين على رقبته وقد استسلم لقضاء الله : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة ، اللهم لا تسلطه على أحد يقتله من بعدي .

وعاش الحجاج بعده أيام قلائل ، قيل ثلاثة ، وقيل خمسة ، وقيل خمسة عشر ، وقيل أكثر من ذلك ، فسلط الله على الحجاج البرودة حتى كان والنار حوله يضع يده في الكانون فيحترق الجلد ولا يحس بالحرارة ، ووقعت الأكلة في داخله والدود ، فبعث إلى الحسن البصري فقال : أما قلت لك لا تتعرض للعلماء؟ قتلت سعيداً !!!

ويقال : إنه كان في مرضه كلما نام رأى سعيداً آخذاً بمجامع ثوبه ، يقول له: يا عدو الله فيم قتلتني ؟ فيستيقظ مذعوراً فيقول : مالي وسعيد بن جبير ،

فسبحان الله الحليم الكريم ، يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة:١٤٤] ، ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ [إبراهيم:٤٢] .

قتل رحمه الله ٩٥ هـ . رحمه الله تعالى ورضي عنه .

أعرض عن الهجران والتمادي ... وارحل لمولى منعم جـــوَّاد

ما العيش إلا في جواره سارة ... قد شربوا من خالص الوداد

وصدق القائل :

خذوا كل دنياكم واتركـوا ... فؤادي حرًا وحيدًا غريـبًا

فإني أعظمكـــم دولـــة ... وإن خلتموني طريدًا سليبا

* حطيط الزيات :

جيء بالعالم الهمام حطيط الزيات إلى الحجاج ، فلما دخل عليه :

قال الحجاج : أنت حطيط ؟

قال حطيط : نعم سل عما بدا لك فإني عاهدت الله عند المقام على ثلاثة خصال : إن سُئلت لأصدقنَّ وإن ابتليت لأصبرنَّ ، وإن عُوفيت لأشكرن.

قال الحجاج : فما تقول فيّ ؟

قال حطيط : أقول فيك إنك من أعداء الله في الأرض ، تنتهك المحارم وتقتل بالظِنَّة .

قال الحجاج : فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟

قال حطيط : أقول إنه أعظم منك جرمًا ، وإنما أنت خطيئة من خطاياه .

فأمر الحجاج أن يضعوا عليه العذاب ، فانتهى به العذاب إلى أن شقق له القصب، ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدون ـ يستلون ـ قصبة قصبة ، حتى انتحلوا لحمه ، فما سمعوه يقول شيئًا ، فقيل للحجاج إنه في آخر رمق .

فقال : أخرجوه فارموا به في السوق .

قال جعفر : وهو الراوي فأتيته أنا وصاحب له ، فقلنا له : حطيط ، ألك حاجة ؟

قال حطيط : شربة ماء .

فأتوه بشربة ثم استشهد ، وكان عمره حينئذ ثماني عشرة سنة رحمه الله [١].

* أبو بكر النابلسي :

لما استولى المغاربة على مصر ، أنكروا صلاة التراويح والتسابيح ، وسبوا الصحابة ، فقال فيهم أبو بكر النابلسي : إن كان مع أحدكم عشرة أسهم ، وجب أن يرمي المغاربة بتسعة ، وأن يرمي العاشر فيهم .

قال الحافظ أبو ذر : سَجَنَه بنو عبيدة ، وصلبوه على السُّنة ، سمعت الدارقطني يذكره ويبكي ، ويقول : كان يقول وهو يسلخ ﴿ **كان ذلك في الكتاب مسطوراً** ﴾ . وكان الإمام في الشام فأمر صاحب مصر [والي مصر] أن يُؤتى بالإمام في قفص من خشب على ظهير البعير .

فقال له صاحب مصر : بلغنا أنك قلت : إذا كان مع الرجل عشرة أسهم ، وجب أن يرمى في الروم سهمًا وفينا تسعة .

قال أبو بكر : ما قلت هذا بل قلت : إذا كان معه عشرة أسهم وجب أن يرميكم بتسعة وأن يرمي العاشر فيكم أيضا ، فإنكم غيرتم الملة ، وقتلتم الصالحين، وادعيتم نور الإلهية .

فشهره ثم ضربه ، ثم أمر يهوديًا بسلخه ، وهو حي ، فسلخ من مفرق رأسه حتى بلغ الوجه ، فكان يذكر الله ، ويصبر حتى بلغ الصدر ، فرحمه السَّلاخ وهو يهودي فوكزه بالسكين في موضع القلب ، فقضى عليه .

وقال الذهبي : قيل لما سلِخ كان يُسمع من جسده قراءة القرآن .

وقال ابن الأكفاني : سُلِخ ، وحُشِ تبنًا ، وصلب [٢] .

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٢/ ٥١٢ ، ٥١٣) ط. المنار - بتحقيقي .
(٢) انظر « سير أعلام النبلاء » (١٦/ ١٤٨) ط. الرسالة .

* الإمام محمد بن الحُبُلي قاضي برقة :

كان إماما زاهدًا ، يمتلك الهمة العالية ، أتاه الأمير فقال له : غدًا العيد .

قال الإمام : حتى نرى الهلال ، ولا أُفَطِّرُ الناس وأتقلَّد إثمهم .

فقال الأمير : بهذا جاء كتاب المنصور.

وكان هذا من رأي العبيدية ، يُفطِّرون بالحساب ،ولا يعتبرون رؤية ـ فلم يُرَ هلال ، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأُهبة العيد .

قال الإمام : لا أخرج ، ولا أصلي.

فأمر الأمير رجلاً خطب ، وكتب بما جرى إلى المنصور ، فطلب القاضي إليه فأُحضِرَ .

فقال الأمير : تنصَّل وأعفو عنك .

فامتنع الإمام ورفض وأبى .

فعُلِّقَ في الشمس إلى أن مات ، وكان يستغيث العطش ، فلم يُسق ، ثم صلبوه على خشبة ، فلعنة الله على الظالمين [1] .

ليس يدنو الخوف منه أبــدا	ليس غير الله يخش أحدًا[2]
لحنة في القلب نارا أشعــلا	من قيود الزوج والولد خــلا
معرض عما سوى الله الأحد	يضع السكين في حلق الولد

وصدق القائل :

نحن عصبة الإله	دينه لنا وطـــن
نحن جند مصطفاه	نستخف بالمحن[3]

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (١٥/ ٣٧٤) ط. الرسالة .
(٢) انظر « علو الهمة » (ص/ ٢٧٩ ، ٢٨٠) .
(٣) انظر « علو الهمة » (ص/ ٢٧٩ ، ٢٨٠) .

* الإمام أحمد بن نصر الخزاعي :

حُمل - رحمه الله - إلى سامرَّاء مقيدًا ، وجلس الواثق له .

قال الواثق : دَعْ ما أخذت له ، ما تقول في القرآن ؟

قال أحمد : كلام الله .

قال الواثق : أفمخلوق هو ؟

قال أحمد : كلام الله .

قال الواثق : فترى ربك في القيامة ؟

قال أحمد : كذا جاءت الرواية .

قال الواثق: ويحك! يُرى كما يرى المحدود المُتجسِّم، ويحويه مكان ويحاصره ناظر؟!!

ثم قال : أنا كفرت بمن هذه صفته ، ثم قال للقضاة حوله : ما تقولون فيه؟

قال قاضي الجانب الغربي : هو حلال الدَّم ، ووافقه فقهاء ، فأظهر أحمد ابن أبي دؤاد أنه كاره لقتله .

قال أحمد بن أبي دؤاد : شيخ مختل تغير عقله ، يُؤخَّر .

قال الواثق : ما أراه إلا مُؤدِّيًا لكفره قائمًا بما يعتقده .

ودعا بالصَّمصامة ، وقام وقال : أحتسب خطاي إلى هذا الكافر .

فمدوا رأسه بحبل وهو مقيد ثم ضُرب عنقه، ونُصب رأسه بالجانب الشرقي.

وقال جعفر بن محمد الصائغ : رأيت أحمد بن نصر حين قُتل ، قال رأسه: لا إله إلا الله .

ونُقل عن الموكل بالرأس ، أنه سمعه في الليل يقرأ : « يس » .

وصح كما قال الذهبي :أنهم أقعدوا رجلاً بقصبة ، فكانت الريح تُدير الرأس إلى القبلة ، فيديره الرجل .

قال السراج : سمعت خلف بن سالم يقول : بعدما قُتل ابن نصر وقيل له : ألا تسمع ما الناس فيه ، يقولون : إن رأس أحمد بن نصر يقرأ ؟!!

فقال : كان رأس يحيى يقرأ .

وبقى الرأس منصوبًا ببغداد ، والبدن مصلوبًا بسامرَّاء ست سنين ، إلى أن أنزل ، وجمع في سنة سبع وثلاثين ، فدفن ـ رحمه الله تعالى ـ [1] .

ويقول محمود محمد موسى :

لم يعدم الرجال صدِّقوني	وإنما الإعدام للخئون
رجالنا لم ينزلوا بل صعدوا	إلى الفراديس التي قد وعدوا
ولم يموتوا ليس للشهيد	موت ولكن جنة الخلد
لا تدمعوا إلا من الأفراح	ما اليوم يوم الحزن والأتراح
اليوم يوم الحور والحبور	ولا تظنوا ضجعة القبور
نهاية للمؤمن الصدوق	بل هي بدء عيشه الحقيق
وللشهيد منزل كريم	له مكان سامق عظيم
وروحه تزف طيَّ حوصلة	لطائر مخصوضر . .ما أجمله
كيف يشاء في الجنان يمشي	ويستظل بظلال العرش
وعيشه المجيد في القيامة	مع النبيين أُلي الكرامة
يشفع في سبعين من ذويه	فهل يصحُّ أننا نبكيه
أم الأصح أن نقيم الزينة	ونعلن الأفراح في المدينة ؟
ونرفع الأكفَّ للسماء	ندعوا إله الجود والعطاء
ونطلبُ الشهادة الكريمة	فجد لنا يا رب بالشهادة

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (١١/ ١٦٧ ـ ١٦٩) ط. موسسة الرسالة .

وإني أرفع صوتي إلى الدعاة هل رأيتم هؤلاء ؟ هل نظرتم في سيرهم وأخبارهم ؟

كأني بهؤلاء الأئمة ينادون : أين أنتم يا دعاة ، في العربات ركبتم ، ومن النقود شبعتم ، وبطعم الهناء ذقتم ، أم وراء المصالح جريتم ؟ ومع الظلمة تصادقتم ، وعن إخوانكم بلّغتم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله

يا دعاة اليوم أين القدوة ؟ أين أحمد بن نصر ؟ أين حطيط ؟ أين سعيد بن جبير ؟ أين أحمد بن حنبل ؟ قال : لقد أخطأت السؤال كان لي أن أسأل أين عبدالله بن سلول ، أين ابن مُشكم ؟ أين عمرو بن جحاش ؟

* الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ :

قال أبو غالب بن معاوية : ضُرب أحمد بن حنبل بالسِّياط في الله ، فقام مقام الصِّدِّيقين ، في العشر الأواخر من رمضان سنة عشرين ومائتين .

أُخذ أحمد بن حنبل في محنة خلق القرآن أيام المأمون ، ليُحمل إلى المأمون ببلاد الروم ، وأُخذ معه أيضا محمد بن نوح مقيدين ، ومات المأمون قبل أن يلقاه أحمد ، فردَّ أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح في أقيادهما ، فمات محمد بن نوح في الطريق ، ورد أحمد إلى بغداد مقيداً .

انظر إلى فعل هؤلاء العلماء ، ويا لهم من علماء . دخل على الإمام أحمد حفاظ أهل الحديث بالرقة وهو محبوس ، فجعلوا يُذاكرونه ما يروى في التقية من الأحاديث ، فقال أحمد : كيف تصنعون بحديث خباب : « **إنه كان قبلكم كان ينشر أحدكم بالمنشار ، ثم لا يصده ذلك عن دينه** » [1] ؟!! فيئسوا منه .

قال الإمام أحمد : كنت أصلي بأهل السجن وأنا مقيد ، ووضعوا في رجله أربعة قيود .

(١) البخاري في كتاب علامات النبوة ـ باب علامات النبوة في الإسلام ، وباب ما لقى النبي ـ عليه السلام ـ وأصحابه من المشركين بمكة (٧/ ١٢٦) .

ولما مات المأمون ، ردَّ أحمد إلى بغدا فسُجن ، إلى أن امتحنه المعتصم [١] .

قال أحمد : لست أبالي بالحبس ، ما هو ومنزلي إلا واحد ، ولا قتلاً بالسيف، إنما أخاف فتنة السَّوط .

فبإسناد عن عبد الله بن أحمد بن حنبل أنه كان يقول : كنت كثيراً أسمع والدي أحمد بن حنبل يقول : رحم الله أبا الهيثم ، فقلت : من أبو الهيثم ؟

قال : أبو الهيثم الحداد . لما مُدت يدي إلى العقاب وأُخرجت للسياط إذا أنا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي ويقول لي : تعرفني ؟ قلت : لا .

قال : أنا أبو الهيثم العيار اللص الطرار ، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين : أني ضُربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق ، وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا ، فاصبر أنت في طاعة الرحمن لأجل الدين .

قال أبو بكر المروزي : لَّما سجن أحمد بن حنبل ، جاء السَّجان ، فقال له : يا أبا عبد الله ، الحديث الذي رُوي في الظلمة وأعوانهم صحيح ؟

قال الإمام أحمد : نعم .

قال السَّجَّان : فأنا من أعوان الظلمة ؟

قال الإمام أحمد : فأعوان الظلمة من يأخذ شعرك ، ويغسل ثوبك ، ويُصلح طعامك ، ويبيع ويشتري منك ، فأما أنت فمن الظلمة أنفسهم [٢] .

ولما أمر المعتصم بحمل أحمد إليه ـ وكان قد سجنوه في رمضان في دار إسحاق بن إبراهيم دخل عليه إسحاق ، فقال : يا أحمد ، إنها والله نفسك ، إنه لا يقتلك بالسيف ، إنه قد آلى إن لم تجبه أن يضربك ضربًا بعد ضرب ، وأن يُلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس ، وجيء إلى أحمد بدابة ، فحمل عليها وعليه الأقياد وكاد غير مرة أن يخرّ على وجهه ، لِثقل القيود فجيء به إلى دار

(١) انظر « تلبيس إبليس » (ص/ ٥٦٥ ، ٥٦٦) وكان يضرب به المثل في الصبر .

(٢) انظر « مناقب الإمام أحمد » (ص/ ٣٩٧) لابن الجوزي ـ رحمه الله ـ .

المعتصم وأدخلوه في حجرة ، وأدخلوه إلى البيت ، وأقفل الباب عليه ، وذلك في جوف الليل ، وليس في البيت سراج ، فلما كان الغدُ ، أخرجوه إلى الخليفة ليناظره أحمد بن أبي دؤاد ، والمعتصم يقول :والله لئن أجابني لأُطلقن عنه بيدي، ولأركبّن إليه بجندي ، ولأطأن عقبه .

ثم قال : يا أحمد والله إني عليك لشفيق ، إني لأشفق عليك كشفقتي على هارون ابني ، ما تقول ؟

فأقول : أعطوني شيئًا من كتاب الله عز وجل أو سنة رسوله .

ومرة أخرى يقول المعتصم لأحمد : ما كنت تعرف صالحًا الرشيدي ؟

قال أحمد : سمعت باسمه ، قال : كان مؤذني ، وكان في ذلك الموضع جالسًا ـ وأشار إلى ناحية من الدار ـ فسألته عن القرآن ، فخالفني ، فأمرت به فوُطئ وسُحب .

وبعد ثلاثة أيام من المناظرة والإمام أحمد يُفحم المبتدعة .

قال المعتصم : العقابين والسياط . فجيء بهم قال أحمد : لما جيء بالسياط، نظر إليهم المعتصم ، فقال : ائتوني بغيرها، فأتي بغيرها ، ثم قال للجلادين : تقدموا فجعل يتقدم إليّ الرجل فيضربني سوطين ، فيقول له المعتصم : شُدَّ ،قطع الله يدك ، ثم يتنحى ، ثم يتقدم الآخر فيضربني سوطين ، وهو في ذلك يقول لهم : شُدُّوا ، قطع الله أيديكم ، فلما ضُربت تسعة عشر سوطًا قام إليَّ يعني المعتصم .

فقال : يا أحمد ، علام تقتل نفسك ؟!! إني عليك والله شفيق .

فقال الإمام : فجعل عُجيف ينخسني بقائم السيف ، وقال : أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم ؟

وجعل بعضهم يقول : ويلك ! الخليفة على رأسك قائم ، وجعل عبدالرحمن يقول : ويحك يا أحمد ! من صنع من أصحابك في هذا الأمر

ما تصنع؟ قال : وجعل المعتصم يقول : ويحك يا أحمد ! أجبني إلى شيء لك فيه أدنى فرج ، حتى أُطلق عنك بيدي .

قال : فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، أعطوني شيئًا من كتاب الله أو سنة رسول الله أقول به . قال : فرجع وجلس ، فقال للجلادين : تقدَّموا ، فجعل الجلاد يتقدم ويضربني سوطين ويتنحى ، وهو في خلال ذلك يقول : شُدَّ ، قطع الله يدك .

قال أحمد : فذهب عقلي فأفقت بعد ذلك ، فإذا الأقياد قد أُطلقت عني ، فقال لي رجل ممن حضر : إننا كببناك على وجهك ، وطرحنا على جنبك بارية ، ودسناك .

قال أحمد : فما شعرت بذلك ، وأتوني بسويق فقالوا لي : اشرب وتقيأ.

قال الإمام : لست أفطر . ثم جيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم فحضرت صلاة الظهر فتقدم ابن سماعة فصلى ، فلما انفتل من الصلاة ، قال لي : صليت والدم في ثوبك ؟! فقلت [أى أحمد] : وقد صلى عمر وجرحه يثغب دمًا .

مكث الإمام أحمد منذ أن أخذ وحمل إلى أن ضرب وخليّ عنه : ثمانية وعشرين شهراً .

قال بعض الجلادين : لقد بطل أحمد الشُّطَّار ، والله لقد ضربته ضربا ، لو أُبرك لي بعير فضربته ذلك الضرب ، لنقبت عن جوفه .

وصدق القائل :

ضربوا ابن حنبل بالسياط بظلمهم بغيًا فثُبِّت بثبات الأنـــــور
قال الموفق حين مُدد بينهـــــم مد الأديم مع الصعيـد القرقر
إني أموت ولا أبوء بضجـــــرةٍ تصلي بوائقها محـل المفترى

وقال آخر :

هانت عليه نفسه في ديــنه ففدى الإمام الدين بالجُثمان

لله ما لقي ابن حنبل صابراً عزمًا وينصره بلا أعـــوان

* مصعب بن عمير :

لما أسلم مصعب بن عمير رضي الله عنه حبسه أهله ، فأفلت إلى الحبشة ، ثم قدِم مكة فدخل على رسول الله ﷺ ، فأرسلت إليه أمه : أتدخل بلدًا أنا فيه ولا تبدأ بي ؟

فقال : ما كنت أبدأ بأحدٍ قبل رسول الله ﷺ .

فأرادت حبسه ، فقال : والله لئن حبستني ، لأحرِّصنَّ على قتل من يتعرض لي ، فتركته .

وعاذلين لُحوبي في مودتـــكم يا ليتهم وجدوا مثل مـا أجـــــد

لما أطالوا عتابي فيك قلت لهـم لا تفرطوا بعض هذا اللوم واقتصدوا

* صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله ـ :

سلاما صلاح الدين يا خير قائد بأمجاده تاج الفتوح تزينـــــا

سلاما صلاح الدين إنا بحاجـة لمثلك من يعلى على الحق صرحنـا

به نُدرك الغايات طراً وإننـــا على موعد الفجر الذي قد قادنـا

المجاهد الرباني ، صاحب معركة حطين التي سُميت « مجزرة الصليبيين » في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وكان عدد الأسرى ثلاثين ألفا من شجعانهم ، وقتل منهم ثلاثون ألفا .

بلغ ثمن الأسير في دمشق ثلاثة دنانير ، ويباع الرجل وزوجته وأولاده في النداء بيعة واحدة ، ولقد بيع رجل وامرأته وخمسة أولاد لهما بثمانين ديناراً ، وأخذ صليب الصلبوت ، وعُلق على قنطارته منكسًا ، ودُخل به إلى دمشق ،

وكانت رؤوس الفرنج مثل البطيخ ، وقيل إن بعض فقراء العسكر من المسلمين باع أسيراً بزربول (حذاء) (١) .

فقيل له في ذلك ، فقال : « أردت أن يقال : بلغ من كثرتهم وهوانهم أن بيع واحد منهم بزربول » .

وقال الحافظ ابن كثير : ذُكر أن بعض الفلاحين رآهُ بعضهم يقود نيفًا وثلاثين أسيراً من الفرنج ، وقد ربطهم بطُنُب خيمةٍ ، وباع بعضهم أسيراً بنعلٍ ليلبسها في رجله وجرت أمور لم يُسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين فلله الحمد دائمًا كثيراً طيبًا مباركًا (٢) .

هكذا تكون الهمم ، يُباع الرجل من الفرنج بحذاء، فليشهد على ذلك التاريخ ، ولكن هل سيتكرر ذلك ؟ ومتى ؟.

يقول القاضي ابن شداد : لقد رأيته ـ رحمه الله ـ بمرج عكا ، وهو على غايةٍ من مرض اعتراه ، بسبب كثرة الدمامل ، التي كانت قد ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه ، بحيث لا يستطيع الجلوس وإنما يكون مُتكئًا على جنبه إن كان بالخيمة، وامتنع من مدّ الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يُفرق على الناس ، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريبًا من العدو ، وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلبًا ، تعبية للقتال ، وكان مع ذلك كله ، يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأطلاب ، ومن العصر إلى صلاة المغرب ، وهو صابر على شدة الألم وقوة ضربان الدمامل ، وأنا أتعجب من ذلك ، فيقول: إذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل ، وهذه عناية ربانية .

ولقد مرض ـ رحمه الله ـ ونحت على الخروبة ، وكان قد تأخر عن « تل الحجل » بسبب مرضه ، فبلغ الإفرنج ذلك ، فخرجوا طمعًا في أن ينالوا شيئا من

---

(١) انظر « عيون الروضتين » (٢/ ١٣٥ ـ ١٣٧) ط. الفكر .
(٢) انظر « البداية والنهاية » (١٢/ ٣٤٢) ط. دار الغد العربي .

المسلمين بسبب مرضه ، وهي نوبة النهر ، فخرجوا في رحلة إلى الآبار التي تحت التل ، ثم رحل العدو في اليوم الثاني يطلبنا ، فركب - رحمه الله - على مضض، ورتب العسكر ، وجعل أولاده في القلب ، ونزل هو وراء القوم بطلبه ، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر ،سار وهو يستدير إلى ورائهم ، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو رحمه الله يسير ساعة ثم ينزل يستريح ، ويُظَلَّل على رأسه بمنديل من شدّة وقع الشمس ، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفًا ، ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ، ونزل هو قُبالتهم على تل مُطِلّ عليهم ، إلى أن دخل الليل ثم أمر العسكر أن تعود إلى محل المصابرة ، وأن يبيتوا تحت السلاح ، وتأخر هو إلى قمة الجبل ، وضُربت له خيمة لطيفة ، وبت تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونُشاغله ، وهو ينام تارةً ويستيقظ أخرى ، حتى لاح الصباح ، ثم ضرب البوق ، وركب - رحمه الله - وركب العسكر .

وفي ذلك اليوم قدّم أولاده بين يديه احتسابًا ، الملك الظاهر والملك الظافر ، وجميع من حضر منهم ، ولم يزل يبعث من عنده ، حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب وعارض الجيش ، والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير، فيظن الرائي لها عن بُعد أن تحتها خلقًا كثيرًا ، وليس تحتها إلا واحد ، بخلق عظيم - رحمه الله - .

ولم يخلف الذهب ولا الفضة ، وترك لأولاده سبعة وأربعين درهمًا ودينارًا واحدًا .

قال القاضي ابن شداد عن يوم موت صلاح الدين :كان يومًا لم يصب المسلمون والإسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمها إلا الله [١] .

قال ابن شداد :وذُكر أنه دفن معه سيفه الذي كان معه في الجهاد ، وكان

(١) انظر « عيون الروضتين » (٢/ ٢٨٩ ، ٢٩٠) .

ذلك برأي القاضي الفاضل حيث قال : هذا يتوكأ عليه في الجنة .

وكان ـ رحمه الله ـ يصلح في سور القدس ، وكان يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته ، من الأمكنة البعيدة ، فيقتدي به العسكر .

قُم من ترابك يا ابن العاص في دمنا ثأرٌ طويل ولهيب العار يكوينا
قُم يا بلال وأذِّن صمتنا عدمٌ كل الذي كان طُهراً لم يعد فينا
هل من صلاح يعيد السيف في يدنا أو تبتروها فقد شلت أيادينا
هل من صلاح يداوي جرح أمته ويطلع الصبح نارا من ليالينا؟
هل من صلاح لشعب هَدَّهُ أملٌ ما زال رغم عناد الجرح يشفينا؟
جرحي عنيد وجرحي أنت يا وطني جئنا نداويك وتأبى أن تداوينا
إني أرى القدس في عينيك ساجدة تبكي عليك وأنت الآن تبكينا
ما زال في العين طيف القدس يجمعنا لا الحلم مات ولا الأحزان تنسينا

وقف « غورو » أمام قبر صلاح الدين ، وركله بقدمه وقال : « ها قد عُدنا يا صلاح الدين » .

تكلم . . . كأن الغدر يهدر من فم وتنطلق الأحقاد من كلمات
فدوى هنا ينهي الصليب حروبه ويمضي فنون الموت والفتكات
ويمضي مع الأيام نهج إبادة وخطة تمزيق ووأد حياة

أرسل شاب من أهل دمشق ـ كان مأسوراً في بيت المقدس ـ رقعة إلى صلاح الدين ، فيها هذه الأبيات :

يا أيها الملك الذي لمعالم الصلبان نكس
جاءت إليك ظلامةٌ تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طُهِّرت وأنا على شرفي مُنجَّس

* نعيم بن حماد :

أُخذ ـ رحمه الله ـ في أيام المحنة ثلاث أو أربع وعشرين ومائتين ، وألقوه في السجن بسامرَّاء فلم يزل محبوسًا بها ، حتى مات في السجن سنة ثمان وعشرين ومائتين ، فجرَّ بأقياده وأُلقي في حفرة ولم يكفن ، ولم يصل عليه ، وكان ـ رحمه الله ـ أوصى أن يُدفن في قيوده وقال : إني مخاصم [1] أي في الله سبحانه وتعالى .

* آسية زوج فرعون :

روى ابن جرير بسنده ، عن سليمان التيمي : كانت امرأة فرعون تُعذب في الشمس ، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها في الجنة .

قال ابن جرير : كانت امرأة فرعون تسأل : من غلب ؟

فيقال : غلب موسى وهارون ، فتقول : آمنت برب موسى وهارون ، فأرسل إليها فرعون . فقال : انظروا أعظم صخرة تجدونها ، فإن مضت على قولها فألقوها عليها ، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي ، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء ، فأبصرت بيتها في الجنة ، فمضت على قولها ، وانتزعت روحها .

يقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١].

* استشهاد ابن وبكاء والد :

قال أبو عبد الرحمن الجرجاني : بلغني أن لله تبارك وتعالى عبادًا ، إلا أن

---

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (١٠/ ٦١٠) ط. الرسالة .

بعضهم أرفع من بعض ، ذهبت أُعزِّي رجلاً ،وقد قتلت الترك ابنه ، فبكى حيث رآني ، فقلت : ما يبكيك ؟ وقد قُتل ابنك في سبيل الله ؟

قال : يا أبا عبد الرحمن ، أنت تظن أني أبكي لقتله ؟ إنما أبكي كيف كان رضاه عن الله حيث أخذته السيوف [1] .

* العز بن عبد السلام :

هو من أصل مغربي ، ولد في دمشق سنة ٥٧٨ هـ .

قال السُبكي : قال أبي : إن الشيخ عز الدين كان في أول أمره فقيراً ، ولم يشتغل بالعلم إلا على كبر ، وإن العز كان يبيت في « الكلاسة » مأوى الفقراء من جامع دمشق .

ولما ولي خطابة الجامع الأموي أبطل كثيراً من البدع مثل :

(١) ضرب السيف على المنبر .

(٢) صلاة الرغائب .

قال قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة (٧٣٣ هـ) : إن الشيخ العز لما كان بدمشق وقع غلاء كبير حتى صارت البساتين تباع بالثمن القليل ، فأعطته زوجته مصاغًا لها وقالت : اشتر لنا به بستانًا نصيف فيه ، فأخذ العز المصاغ وباعه وتصدق بثمنه فقالت زوجته : يا سيدي أاشتريت لنا ؟ قال : نعم ، بستانًا في الجنة، إني وجدت الناس في شدة فتصدقت بثمنه .

فقالت : جزاك الله خيراً .

وله عدة مواقف تدل على البطولة والشجاعة .

الموقف الأول :

كان لمماليك الأتراك نفوذ في الدولة الإسلامية في أواخر حكم العباسيين

(١) انظر « الرضا عن الله » (ص/ ١٠٤) لابن أبي الدنيا .

وامتد نفوذهم حتى أصبحوا أمراء في الدولة أيام حكم نجم الدين أيوب في مصر، وكان الشيخ العز قاضيًا للقضاة فيها .

يقول الإمام السُبكي : لقد رأى الشيخ أن المماليك يخضعون لحكم الرق ، فبلغهم ذلك ، فعظم الخطب فيه واحتدم الأمر ، والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعًا ولا شراء ولا نكاحًا وتعطلت مصالحهم بذلك ، ولكن من جملتهم نائب السلطنة فاستشاط غضبًا واجتمعوا وأرسلوا إليه .

فقال الإمام : نعقد لكم مجلسًا وينادي عليكم لبيت مال المسلمين ، ويجعل عتقكم بطريق شرعي ، فرفعوا الأمر إلى السلطان فبعث إليه فلم يرجع فجرت من السلطان كلمة فيها غلظة ، حاصلها الإنكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر، وأنه لا يتعلق به ، فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار ، وأُركب عائلته على حمير أخرى . ومشى خلفهم من القاهرة قاصدًا الشام ، فلم يصل إلى نحو نصف بريد حتى لحقه غالب المسلمين لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه أن يتخلف ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم . فبلغ السلطان الخبر ، وقيل له متى راح ذهب ملكك قبله فرجع واتفقوا معه على أن ينادي على الأمر فأرسل نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه فانزعج النائب .

وقال : كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض ؟ والله لأضربنه بسيفي هذا .

فركب بنفسه في جماعة ، وجاء إلى بيت الشيخ ، والسيف مسلول في يده فطرق الباب ، فخرج ولد الشيخ . . فرأى من نائب السلطنة ما رأى فعاد إلى أبيه وشرح له الحال ، فما اكترث لذلك ولا تغير .

وقال : يا ولدي أبوك أقل من أن يُقتل في سبيل الله ، ثم خرج كأن قضاء الله قد نزل على نائب السلطنة فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب وسقط السيف منها واتعدت مفاصله ، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له .

وقال : يا سيدي خير أي شيء تعمل ؟

قال العز : أنادي عليكم وأبيعكم .

قال : ففيم تصرف ثمننا ؟

قال : في مصالح المسلمين .

قال : من يقبضه ؟

قال العز : أنا .

فتم له ما أراد ونادى على الأمراء واحداً واحداً وغالى في ثمنهم وقبضه وصرفه في وجوه الخير .

الموقف الثاني :

ووقعت له في سنة ٦٤٠ هـ حادثة مع كبير أمناء السلطان نجم الدين أيوب ، فقد عمد صاحب منصب الاستدارة كبير الأمناء فخر الدين عثمان إلى أحد مساجد مصر ، وأقام على ظهره قاعة موسيقى ، (طبلخانة) ، ظلت تضرب نهاراً فتعارض ذلك مع ما ينبغي أن يتوافر لأماكن العبادة من الجو الهادئ الذي يناسب الجلالة .

فلما ثبت ذلك للشيخ حكم بهدم هذا البناء وأسقط شهادة فخر الدين فلم يستطع أحد تنفيذ الحكم ، فذهب العز وأولاده وهدموا الطبلخانة ثم قام بتقديم استقالته للحاكم فقبلها الحاكم وظن فخر الدين وغيره أن هذا الحكم لا أثر له (أي إسقاط شهادة) .

واتفق أن جهز السلطان رسولاً من عنده إلى الخليفة المعتصم ببغداد ، فلما وصل الرسول إلى الديوان ،وقف بين الخليفة وأدى الرسالة له ، فخرج إليه وسأله هل سمعت هذه الرسالة من السلطان ؟ فقال : لا ، ولكن حملنيها عن السلطان فخر الدين ابن شيخ الشيوخ .

فقال الخليفة : أن المذكور أسقطه العز بن عبد السلام فنحن لا نقبل روايته .

وهكذا يموت الحاكم ولا تموت كلمة العلم .

الموقف الثالث :

قد احتدم الخلاف بين الأخوين ، سلطان الشام : الملك الصالح إسماعيل ، وسلطان مصر : الصالح نجم الدين أيوب ، واستعان الأول بالصليبيين أعداء الإسلام ، وتحالف معهم على قتال أخيه ، وأعطاهم في المقابل مدينة صيدا وكذا قلعة صفد ، وسمح للصليبيين أن يدخلوا دمشق ويشتروا منها السلاح والآلات الحربية وما يريدون ، فهب الشيخ العز كالأسد وخطب خطبة مازال صداها موجودًا حتى الآن وكانت تحت عنوان « ذم موالاة الأعداء وتقبيح الخيانة » .

وأفتى فيها بتحريم بيع السلاح لهم .

وقطع من الخطبة الدعاء للسلطان إسماعيل وهو بمثابة الإعلان بترك البيعة.

وقال فيها : « اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد يعز فيه أولياؤك ، ويذل فيه أعداؤك ويعمل فيه بطاعتك وينهي فيه عن معصيتك » .

فأمر السلطان وكان خارج دمشق باعتقال الشيخ وعزله ، وقد أشار أنصار الشيخ عليه بأن يغادر البلاد وينجو من السلطان وأعدوا له الخطة ، فرفض ذلك ـ رحمه الله ـ لأنه لا يريد أن يفر من ساحة الجهاد ، فعرضوا عليه أن يختبئ فقال: « والله لا أهرب ولا أختبئ وإنما نحن في بداية الجهاد ولم نعمل شيئًا بعد وقد وطّنت نفسي على احتمال ما ألقى في هذا السبيل والله لا يضيع عمل الصابرين».

ولما قدم السلطان إسماعيل إلى دمشق أفرج عنه ، ولكن العز بن عبد السلام أمر بملازمة داره وأن لا يفتي ولا يجتمع بأحد البتة فاستأذنه في صلاة الجمعة مؤتمًا بإمامها وأن يعيد إليه طبيب مزين إذا احتاج إليه ، وأن يدخل الحمام فأذن له في ذلك .

ومرت الأيام والشيخ في إقامته الجبرية وقد منع من الإفتاء والاتصال بأحد من

إخوانه أو طلابه ، فطلب الهجرة من دمشق قاصداً مصر ، وأفرج عنه بعد مشاورات فأقام بدمشق ثم نزع منها إلى بيت المقدس ، فوفاه الملك الناصر داود في الفور فقطع عليه الطريق وأخذه وأقام بنابلس مدة وجدت له معه خطوب ثم انتقل إلى بيت المقدس حيث أقام مدة ثم جاء الصالح إسماعيل والملك المنصور صاحب حمص وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس يقصدون الديار المصرية فسير الصالح إسماعيل بعض خواصه إلى الشيخ بمنديل ، وقال له: تدفع منديلي إلى الشيخ وتتلطف له غاية التلطف وتستنزله وتعده بالعودة إلى مناصبه على أحسن حال فإن وافقك تدخل به عليَّ ، وإن خالفك فاعتقله في خيمة إلى جانب خيمتي ، فلما رجع الرسول بالشيخ ، شرع في مسايسته وملاينته.

ثم قال له : بينك وبين أن تعود إلى منصبك وما كنت عليه زيادة أن تنكسر للسلطان وتُقبل يده لا غير .

فقال الشيخ : « والله يا مسكين ما أرضاه أن يُقبل يدي فضلا عن أن أقبل يده، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد ، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به ».

فقال الرسول : يا شيخ قدر لي أن توافق على ما يطلب وإلا اعتقلتك.

فقال الشيخ : افعلوا ما بدا لكم فأخذه واعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان وكان الشيخ يقرأ القرآن في معتقله والسلطان يسمعه .

فقال يومًا لملوك الفرنج : تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن ؟

فقالوا : نعم .

فقال : هذا أكبر قساوس المسلمين ، قد حبسته لإنكاره عليَّ تسليمي لكم حصون المسلمين وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه ثم أخرجته فجاء إلى القدس وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم .

انظر أيها الأخ العزيز : من يريد العزة عند الناس لم يزده الله إلا ذلا .

فقالت له ملوك الفرنج : لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها .

الموقف الرابع :

ويروي لنا الشيخ ـ الباجي رحمه الله ـ يقول : أن سلطان مصر خرج على قومه في أكمل زينة وأعظمها في يوم العيد إلى القلعة وقد اصطف العسكر وقبل العلماء الأرض بين يدي السلطان ، فإذا الشيخ العز ينادي السلطان مجرداً عن لقبه بصوت عال : يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور ؟

فقال السلطان : هل جرى هذا ؟

فقال العز : نعم الحانة الفلانية يُباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة .

فقال السلطان : أنا ما عملته هذا من زمان أبي .

فقال العز : أأنت من الذين يقولون :﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ .

فأبطل السلطان تلك الحانة على الفور .

ثالثًا : الزهد في الدنيا

يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

ويقول تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد: ٢٠].

ويقول تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: ١-٥].

تعريف الزهد :

قال صاحب المنازل « الزهد » هو إسقاط الرغبة عن الشيء بالكلية [١] .

ويقول هو للعامة : قربة ، وللمريد : ضرورة ، وللخاصة :خشية .

يقول الغزالي - رحمه الله - : ما يسمى زهداً : وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه ، فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه ، إنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره ، فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهداً [٢] .

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : الزهد على ثلاثة أوجه :

الأول : ترك الحرام : وهو زهد العوام .

---

(١) انظر « مدارج السالكين » (٢/ ١٦) ط. دار الحديث .

(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (٤/ ٣١٣ ، ٣١٤) ط. المنار .

الثاني : ترك الفضول من الحلال : وهو زهد الخواص .

الثالث : ترك ما يشغل عن الله : وهو زهد العارفين [١] .

درجات الزهد :

ويقسم ابن القيم الزهد إلى ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : الزهد في الشبهة :

أما الزهد في الشبهة : فهو ترك ما يشتبه على العبد : هل حلال ، أو حرام؟ كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « **الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب** » .

فالشبهات برزخ بين الحلال والحرام ، وقد جعل الله بين كل متباينين برزخًا ، كما جعل الموت وما بعده برزخًا بين الدنيا والآخرة ، وجعل المعاصي برزخًا بين الإيمان والكفر ، وجعل الأعراف برزخًا بين الجنة والنار وترك الشبهة لا يكون إلا بعد ترك الحرام .

إذا لم أترك الماء اتقاء	تركته لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام	رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء	إذا كان الكلاب يلغن فيه

(١) انظر « مدارج السالكين » (٢/ ١٣) .

(٢) الحديث صحيح : أخرجه البخاري في « صحيحه » (١/ ١١٦) و(٤/ ٢٤٨، ٢٤٩) ومسلم في « صحيحه » « ح » (١٥٩٩) وروياه من طرق بألفاظ متقاربة .

الدرجة الثانية : الزهد في الفضول :

وهو ما زاد على المُسكة والبلاغ من القوت .

« الفضول » : ما يفضل عن قدر الحاجة . « والمسكة » : ما يمسك النفس من القوت والشراب ، واللباس والمسكن ،والمنكح إذا احتاج إليه .

و« البلاغ » : هو البلغة من ذلك ، يتبلغ به المسافر في منازل السفر .

ولما كان الزهد لأهل الدرجة الأولى : خوفًا من المَعْتبة ، وحذرا من المنقصة؛ كان الزهد لأهل هذه الدرجة أعلى وأرفع ، وهو اغتنام الفراغ لعمارة أوقاتهم مع الله ، لأنه إذا اشتغل بفضول الدنيا ، فاته نصيبه من انتهاز فرصة الوقت ، فالوقت سيف إن لم تقطعه قطعك .

وعمارة الوقت : الاشتغال بجميع آنائه بما يقرب إلى الله ، أو يُعين على ذلك من مأكل أو مشرب ، أو منكح ، أو منام ، أو راحة ، فإنه متى أخذها بنية القوة على ما يحبه الله ، وتجنب ما يسخطه ، كانت من عمارة الوقت ، وإن كان له فيها أتم لذة فلا تحتسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات .

الدرجة الثالثة : الزهد في الزهد :

وهو يكون بثلاثة أشياء :

١ ـ استحقار ما زهدت فيه .

٢ ـ استواء الحالات فيه عندك .

٣ ـ الذهاب عن شهود الاكتساب ، ناظرًا إلى وادي الحقائق .

قوله : « احتقار ما زهد فيه » : فإن من امتلأ قلبه بمحبة الله وتعظيمه لا يرى أن ما تركه لأجله من الدنيا يستحق أن يجعل قربانًا ، لأن الدنيا بحذافيرها لا تساوي عند الله جناح بعوضة .

أما « استواء الحالات عنده » : فهو أن يرى ترك ما زهد فيه وأخذه متساويين عنده .

إذ ليس له عنده قدر ، وهذا من دقائق فقه الزهد ، فيكون زاهدًا في حال أخذه، كما هو زاهد في حال تركه.

وأما « الذهاب عن شهود الاكتساب » فمعناه : أن من استصغر الدنيا بقلبه ، واستوت الحالات في أخذها وتركها عنده : لم ير أنه اكتسب بتركها عند الله درجة البتة ، لأنها أصغر في عينه من أن يرى أنه اكتسب بتركها الدرجات .

وفيه معنى آخر : وهو أن يشاهد تفرد الله عزَّ وجلَّ بالعطاء والمنع ، فلا يرى أنه ترك شيئًا ولا أخذ شيئًا ، بل الله وحده هو المعطي المانع (١) .

قال يوسف بن أسباط : إني لأشتهي من الله ثلاث خصال : أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم ، ولا يكون عليَّ دين ولا على عظمي لحم فأعطي ذلك كله (٢) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر، وجلسنا حوله ، فقال : « **إنَّ مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها** » (٣).

وقال ﷺ : « **إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء** »(٤).

وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله دُلّني على عمل إذا عملته أحبني الله، وأحبني الناس، فقال: «**ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك**»(٥).

(١) انظر « مدارج السالكين » (٢/ ١٨ ـ ٢٠) للإمام ابن القيم ط. دار الحديث .

(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (٤/ ٣٢٥) بتحقيقي ط. المنار .

(٣) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري في « صحيحه » (٣/ ٢٥٨) ، ومسلم في «صحيحه» (١٠٢) ، (١٢٣) وفي « الرياض » برقم (٤٥٨) بتحقيقي .

(٤) **الحديث صحيح** : أخرجه مسلم في « صحيحه » (٢٧٤٢) ، وفي « الرياض » برقم (٤٥٩) .

(٥) **الحديث حسن لغيره** : على الأقل إن شاء الله . =

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء »** [(١)] .

وعن كعب بن عياض رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال »** [(٢)] .

ومن حديث ابن عمر رضي الله عنه ، قال ﷺ : **« صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل والأمل »** [(٣)] .

= أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢) ،والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٥٢ ، ٢٥٣) ، وفي إسناده : خالد بن عمرو ، وقال البوصيري: هذا إسناد ضعيف، خالد بن عمرو ، قال أحمد وابن معين : أحاديثه موضوعة ، قال البخاري وأبو زرعة : منكر الحديث ، وقال ابن حبان :كان ينفرد عن الثقات بالموضوعات، لا يحل الاحتجاج بخبره ، وضعفه أبو داود والنسائي ، وقال ابن عدي: عامة أحاديثه - أو كلها - موضوعة ، وقال البوصيري : وأورد له العقيلي هذا الحديث بهذا الإسناد وقال: ليس له أصل من حديث الثوري ، وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية من طريق خالد بن عمرو وضعف الحديث ، قال الحافظ عبد العظيم المنذري : وقد حسن بعض مشايخنا إسناده وفيه بعد لأنه رواية خالد بن عمرو ، وقد ترك ولم أر من وثقه لكن على هذا الحديث لامعة من أنوار النبوة ولا يمنع كون راويه ضعيفًا أن يكون النبي - ﷺ - قاله ، وقد تابعه عليه محمد بن كثير الصنعاني عن سفيان ومحمد هذا قد وثق على ضعفه وهو أصح حالاً من خالد والله أعلم . وقال النووي :حديث حسن ، رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة « الرياض » برقم (٤٧٢) . وقال الحافظ ابن حجر: رواه ابن ماجه وغيره ، وسنده حسن . « بلوغ المرام » (١٣٨٩) .

(١) **الحديث حسن** : أخرجه الترمذي (٢٣٢١) وابن ماجه (٤١١٠) بإسناد ضعيف ولكن له شاهد من حديث ابن عمر عند الخطيب (٤/ ٩٢ - تاريخ) ،وله شاهد ثان أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٠٤) من رواية ابن عباس ، وعند ابن المبارك (٥٠٩ - زهد) وحديث الحسن عنده أيضًا (٦٢٠) وبهذه الشواهد يصير حسنًا.

(٢) **الحديث صحيح** : أخرجه الترمذي (٢٣٣٧) وأحمد في «المسند » (٤/ ١٦٠) وابن حبان (٢٤٧٠) وصححه ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٨) وصححه ، ووافقه وأقره الذهبي ، وحسنه النووي .

(٣) **الحديث حسن** : أخرجه أحمد في « الزهد » ، والبيهقي في « الشعب » ،والطبراني =

وقال ﷺ : « البذاذة من الإيمان » [١] .

ومن حديث عبد الله بن محصن ، قال ﷺ : « من أصبح منكم آمنًا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » [٢] .

من علامات الزهد :

* **العلامة الأولى** : أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود ، كما قال تعالى : ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

* **العلامة الثانية** : أن يستوي عنده ذامه ومادحه ، فالأول علامة الزهد في المال، والثاني علامة الزهد في الجاه والسلطان .

* **العلامة الثالثة** : أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إما محبة الدنيا أو محبة الله [٣] .

وقال يحيى بن معاذ الرازي : علامة الزهد : السخاء بالموجود .

وقال ابن خفيف :علامته وجود الراحة في الخروج من الملك .

وقال أيضًا : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكليف .

= في « الأوسط » وحسنه الشيخ الألباني ، وراجع « صحيح الجامع » برقم (٣٨٤٥).

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه أحمد في « المسند » ، والحاكم ، وابن ماجه وصححه الشيخ الألباني ، انظر « صحيح الجامع » (٢٨٧٩) .

(٢) **الحديث حسن** : أخرجه الترمذي في « سننه » (٢٣٤٧) وابن ماجه (٤١٩٣) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٣٠٠) والحميدي (٤٣٩) وفي إسناده : عبدالرحمن ابن أبي شميلة لم يوثقه غير ابن حبان ، وأيضًا شيخه مجهول ، ولكن له شاهد من حديث أبي الدرداء أخرجه ابن حبان في « صحيحه » (٢٥٠٣) ولذا فهو حسن إن شاء الله .

(٣) انظر « إحياء علوم الدين » (٤/ ٣٥٠ ـ ٣٥٢) ط. المنار .

وقال الإمام أحمد وسفيان ـ رحمهما الله ـ : علامة الزهد قصر الأمل .

وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد ثلاث :

١ ـ عمل بلا إعاقة .

٢ ـ قول بلا طمع .

٣ ـ عز لا رئاسة .

وقال الفضيل بن عياض : جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله في بيت ، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا (١) .

موعظة الإمام أحمد بن حنبل :

سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه أن يعظه فقال الإمام : إن كان الله تكفل بالرزق فاهتمامك بالرزق لماذا ؟؟ وإن كان الرزق مقسوم فالحرص لماذا ؟ وإن كان الخلف على الله فالبخل لماذا ؟ وإن كانت النار حقًا فالمعصية لماذا ؟ وإن كانت الجنة حقًا فالراحة لماذا ؟ وإن كانت الدنيا فانية فالطمأنينة لماذا ؟ وإن كان الحساب حقًا فالجمع لماذا ؟

وإن كان كل شيء بقضاء الله وقدره فالحزن لماذا ؟ (٢) .

يا طالب الرزق في الآفات مجتهدًا ... اقصر عناك فإن الرزق مقسوم

الرزق يسعى إلى من ليس يطلبه ... وطالب الرزق يسعى وهو محروم

وقال بعضهم :

الرزق يأتي وإن لم يسع صاحبه ... حتمًا ولكن شقاء المرء مكتوب

وفي القناعة كنز لا نفاد له ... وكل ما يملك الإنسان مسلوب

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٤/ ٣٥٠ ـ ٣٥٢) ط. المنار .

(٢) انظر « مصباح الظلام» (١/ ٣٠ ، ٣١) .

وقال آخر :

يرزق لا من حيث حيلته ويصرف الرزق عن ذي الحيلة الداهي[١]

وعن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم**» [٢] .

صور مشرقة من زهد السلف

زهد الخليل محمد ﷺ :

عن أبي هريرة قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال : « **ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة** » قالا : الجوع يا رسول الله قال : « **وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوموا** » فقاموا معه فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس في بيته فلما رأته المرأة قالت مرحبًا وأهلاً فقال لها رسول الله ﷺ : « **أين فلان ؟** » قالت ذهب يستعذب لنا من الماء إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال الحمد لله ما أحدٌ اليوم أكرم أضيافًا مني قال فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال كلوا من هذه وأخذ المدية فقال له رسول الله ﷺ : « **إياك والحلوب** » فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر : « **والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم** » [٣] .

---

(١) انظر « مصباح الظلام » (١/ ٢٨ ، ٢٩) .

(٢) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري في « صحيحه » (٧/ ٣١٩ ، ٣٢٠) ، كتاب المغازي (١٢) «ح» ، (٤٠١٥) ، ومسلم في « صحيحه » (٤/ ٢٢٧٣ ، ٢٢٧٤)، الزهد (٥٣) «ح» (٦/ ٢٩٦١) .

(٣) **الحديث صحيح** : أخرجه مسلم في « صحيحه » (٢٠٣٨) ، والترمذي في « سننه »=

لا إله إلا الله الرسول يقول إن الله سيحاسبهم على هذا الطعام ، وكان الطعام عن جهد وجوع فكيف بنا نحن؟!!

وذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال : «لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد دقلا يملأ به بطنه » (١) .

« الدقل » أي : رديء التمر . رسول الله ﷺ لا يجد رديء التمر ، فداك أبي وأمي يا رسول الله .

عن عبد الله قال : نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء فقال : **« ما لي وما للدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها »** (٢) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : ولقد رهن النبي ﷺ درعه بشعير ومشيت إلى النبي ﷺ بخبز شعير وإهالة سنخة ولقد سمعته يقول **« ما أصبح لآل محمد ﷺ إلا صاع ولا أمسى وإنهم لتسعة أبيات »** (٣) .

= (٢٣٧٠)، ومالك في « الموطأ » (٤/ ٩٣٢) وهذا الأنصاري هو : أبو الهيثم بن التيهان رضي الله عنه وجاء مبيّنًا في روايته الترمذي وغيره ، وانظر كذلك « الرياض » بتحقيقي .

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٩٧٨) ،وأحمد في المسند (١/٢٤).

(٢) **الحديث صحيح** : أخرجه الترمذي (٢٣٧٨) وقال : حديث حسن صحيح ، وأحمد في « المسند » (١/ ٣٩١ ، ٤٤١) ، وابن ماجه (٤١٠٩) ، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣١٠) ، والطيالسي (٧٧) ، وله شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنه عند أحمد في « المسند » (١/ ٣٠١) ، وابن حبان (٢٥٢٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٠٩ ، ٣١٠) .

(٣) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري في « صحيحه » (٥/ ٩٩ ، ١٩٩) ، والنسائي (٧/ ٢٨٨) ، والترمذي في « سننه » (١٢١٥) .

الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ :

روي أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها ، وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها ، فقال له بنوه : قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه ؟!!

فبكى الفضيل وقال : أتدرون ما مثلي ومثلكم ؟ كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها ، فلما هرمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلدها ، كذلك أنتم أردتم ذبحي على كبر سني ، موتوا يا أهلي جوعًا خير لكم من أن تذبحوا فضيلاً [(١)] .

سعيد بن عامر الجمحي رضي الله عنه :

قال خالد بن معدان : استعمل علينا عمر بن الخطاب بحمص سعيد بن عامر ابن جذيم الجُمحي ، فلما قدم حمص ، قال : يا أهل حمص ، كيف وجدتم عاملكم ؟!

فشكوه إليه ، وكان يُقال لأهل حمص : الكُوفية الصغرى ، لشكايتهم العمال.

قال : نشكو أربعًا :

١ ـ لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار .

٢ ـ لا يجيب أحدًا بليل .

٣ ـ له يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا .

٤ ـ يغنط الغنطة بين الأيام . يعني : تأخذه موته (تشنج) .

فجمع عمر رضي الله عنه بينهم وبينه ، وقال : اللهم لا تُفيِّل (لا تُخيب) رأيي فيه اليوم ، ما تشكون منه ؟

قالوا : لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار .

قال سعيد : والله إن كنت لأكره ذكره ، ليس لأهلي خادم ، فأعجن عجيني، ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزي ، ثم أتوضأ ثم أخرج إليهم .

فقال عمر : مم تشكون منه ؟

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٤/ ٣٢٥ ، ٣٢٦) ط. المنار .

قالوا : لا يجيب أحداً بليل .

قال عمر : ما تقول ؟

قال سعيد : إن كنت لأكره ذكره ، إني جعلت النهار لهم ، وجعلت الليل لله عز وجل .

قال عمر : مم تشكون ؟

قالوا : إنه له يوم في الشهر لا يخرج إلينا فيه .

قال عمر : ما تقول ؟

قال سعيد : ليس لي خادم يغسل ثيابي ، ولا لي ثيابٌ أبدلها ، فأجلس حتى تجف ، ثم أدلكها ثم أخرج إليهم من آخر النهار .

قال : ما تشكون منه ؟

قالوا : يغتط الغطة بين الأيام (تأخذه رعشة شديدة) .

قال عمر : ما تقول ؟

قال سعيد : شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة ، وقد بضعت قريش لحمه، ثم حملوه على جذعة ، فقالوا : أتحب أن محمداً مكانك ؟ ، فقال : والله ما أحب أني في أهلي وولدي ، وأن محمداً ﷺ شيك بشوكة ثم نادى : يا محمد . فما ذكرت ذلك اليوم ، وتركي نُصرته في تلك الحال ـ وأنا مشرك لا أؤمن بالله العظيم ـ إلا ظننت أن الله عز وجل لا يغفر لي بذلك الذنب أبداً .

قال : فتصيبني تلك الغطة .

فقال عمر : الحمد لله الذي لم يُفيِّل فراستي .

ورفع أهل حمص كتابًا بأسماء الفقراء الموجودين عندهم إلى أمير المؤمنين وكان من جملة الفقراء المكتوبين : سعيد بن عامر الجمحي . فقال عمر : من سعيد بن عامر ؟ ، فقالوا : أميرنا .

قال عمر : أميركم ؟ قالوا : نعم والله إنه ليمر عليه الأيام الطوال ولا يوقد في بيته نار . فبكى عمر رضي الله عنه بكاء شديداً ، حتى بلت دموعه لحيته.

ثم عمد رضي الله عنه إلى ألف دينار فجعلها في صرة وأرسلها إليه وقال : اقرؤوا عليه السلام وقولوا له : ليستعين بهذا على قضاء حوائجه ، فلما جاؤوه وأخبروه ، جعل يبعدها عنه ، ويسترجع ، فجاءت زوجته وقالت : ما شأنك ؟ أمات أمير المؤمنين ؟ قال : بل أعظم من ذلك . قالت : وما ذاك ؟ قال : دخلت عليَّ الدنيا لتفسد آخرتي ، وحلت الفتنة في بيتي . قالت : تخلص منها . قال: هل تعينيني على ذلك ؟، قالت : نعم . فوزعها على الفقراء والمساكين كلها [١].

أويس القرني : سيد التابعين :

عن أسير بن جابر قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم أفيكم أويس بن عامر حتى أتى على أويس فقال : أنت أويس بن عامر ؟ قال : نعم . قال : من مراد ثم من قرن ؟ قال : نعم . قال : فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم ؟ قال : نعم . قال : لك والدة ؟ قال: نعم . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل** » فاستغفر لي فاستغفر له . فقال له عمر : أين تريد ؟ قال الكوفة قال : ألا أكتب لك إلى عاملها قال : أكون في غبراء الناس أحب إليَّ .

قال فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرافهم فوافق عمر فسأله عن أويس قال تركته رث البيت قليل المتاع قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ**

(١) انظر « حياة الصحابة » (٢/ ١١٨ ، ١١٩) ، « وموارد الظمآن » (٢/ ١٢٠ - ١٢٣)، وخاتمة الرواية لها أكثر من رواية في كتابنا « الأخبار من تراجم الأخيار » وفي «الحلية» لأبي نُعيم (١/ ٢٤٥) .

منه إلا موضع درهم له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل » فأتى أويسًا فقال : استغفر لي قال : أنت أحدث عهدا بسفر صالح فاستغفر لي قال استغفر لي قال : أنت أحدث عهدًا بسفر صالح فاستغفر لي قال لقيت عمر قال نعم فاستغفر له ففطن له الناس فانطلق على وجهه . قال أسير : وكسوته بردة فكان كلما رآه إنسان قال من أين لأويس هذه البردة [١] .

انظروا أيها الأخوة : أويس سيد التابعين ومُبشر بالجنة ، يقول عنه الرجل الثري !! تركته رث البيت قليل المتاع .

قال علقمة بن مرثد : وأما أويس القرني ، فإن أهله ظنوا أنه مجنون ، فبنوا له بيتًا على باب دارهم فكانت تأتي عليهم السنة والسنون ، لا يرون له وجهًا ، وكان طعامه مما يلتقط من النوى ، فإذا أمسى باعه لإفطاره . فلما وُلّيَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : أيها الناس ، قوموا بالموسم ، فقاموا . فقال : ألا اجلسوا إلا من كان من أهل الكوفة ، فجلسوا ، فقال : ألا اجلسوا إلا من كان من أهل اليمن . فجلسوا . فقال : ألا اجلسوا إلا من كان من مراد . فجلسوا ، فقال : ألا اجلسوا إلا من كان من قرن. فجلسوا إلا رجل ، وكان عم أويس القرني . فقال له عمر : أقرنيٌّ أنت ؟ فقال : نعم قال : أتعرف أويسا ؟ قال : وما تسأل عن ذلك يا أمير المؤمنين ؟!! فوالله ما فينا أحمق منه ، ولا أجن منه ، ولا أحوج منه. فبكى عمر وقال : بك لا به .

وعن مغيرة : إن كان أويس القرني يتصدق بثيابه ، حتى يجلس عُريانًا ، لا يجد ما يروح فيه إلى الجمعة [٢] .

ظهر أويس رضي الله عنه في أيام عليٍّ ، فاستشهد في « صفين » فنظروا فإذا عليه نيف وأربعون جراحة [٣] .

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه مسلم .
(٢) انظر « الحلية » لأبي نعيم (٢/ ٨٤).
(٣) انظر « سير أعلام النبلاء » ، (٢/ ٣٤ ، ٣٥).

قال : الذهبي : الزهد زهد أويس ، بلغ من العري أن جلس في قوصرة[١].

يكفيك مما أغلق الباب دونــه وأرخى عليه الستر ملحٌ وجردق

وماءٌ فراتٌ باردٌ ثم تغتـــدي تعارضُ أصحـاب الثريد المُلبّـق

عمر بن عبد العزيز :

عن عون بن المُعمّر ، أن عمر بن عبد العزيز دخل على فاطمة فقال : يا فاطمة ، عندك درهم أشتري به عنبًا ؟! فقالت : لا .

قال : فعندك الفلوس أشتري به عنبًا ؟ ، قالت : لا ، وأقبلت عليه .

فقالت : أنت أمير المؤمنين ، لا تقدر على درهم تشتري به عنبًا ، ولا فلوس تشتري به عنبًا ؟!!

قال : هذا أهون عليَّ من معالجة الأغلال غدًا في جهنم [٢] .

قال ميمون بن مهران : أقمت عند عمر بن عبد العزيز ستة أشهر ، ما رأيته غيَّر رداءه ، كان يُغسَل الجمعة إلى الجمعة ، ويُبيَّن بشيء من زعفران .

وعن مسلمة بن عبد الملك قال : دخلت على عمر ، وقميصه وسخٌ ، فقلت لامرأته ـ وهي أخت مسلمة ـ اغسلوه . قالت : نفعل ، ثم عُدت ، فإذا القميص على حاله ، فقلت لها ، فقالت : والله ماله قميص غيره [٣] .

قومٌ إذا غسلوا الثياب رأيتهم لبسوا البيوت وزرروا الأبوابا

محمد بن واسع ـ رحمه الله ـ :

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ : لما فتح يزيد بن المهلب جرجان ، أصاب يزيد بن المهلب أموالاً كثيرة جدًا ، فكان من جملتها تاجٌ فيه جواهر نفيسة .

---

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » ، (٢/ ٣٤ ، ٣٥) .

(٢) انظر « علو الهمة » (٤/ ٢٨٦) ط. الرسالة .

(٣) انظر « سير أعلام النبلاء » (٥/ ١٣٤) ط. الرسالة .

فقال يزيد : أترون أحدًا يزهد في هذا ؟

قالوا : لا نعلمه .

فقال يزيد : والله إني لأعلم رجلاً ، لو عُرض عليه هذا وأمثاله ، لزهد فيها، ثم دعا بمحمد بن واسع ، وكان في الجيش مغازيًا ، فعرض عليه التاج .

فقال محمد : لا حاجة لي فيها .

فقال يزيد : أقسمت عليك لتأخذنَّه .

فأخذه ، وخرج به من عنده ، فأمر يزيد رجلاً أن يتبعه ، فينظر ماذا يصنع بالتاج ، فمر بسائل فطلب منه شيئًا ، فأعطاه التاج بكماله وانصرف ، فبعث يزيد إلى ذلك السائل فأخذ منه التاج ، وعوَّضه مالاً كثيرًا (١) .

حاتم الأصم يعلمنا الزهد :

الموقف الأول : كان هناك في الري الشيخ الطنافسي ولكنه كان مسرفًا على نفسه في الملبس والمأكل والمشرب ، فذهب إليه حاتم الأصم .

يقول حاتم : رحمك الله ، أنا رجل أعجمي أحب أن تعلمني أوّل مبتدأ ديني، ومفتاح صلاتي ، وكيف أتوضأ ؟!

قال الطنافسي : نعم وكرامة ، يا غلام ، إناء فيه ماء ، فأتى بإناء فيه ماء ، فقعد الطنافسي فتوضأ ثلاثًا ثلاثًا ثم قال : يا هذا ، هكذا تتوضأ .

قال حاتم : مكانك ـ رحمك الله ـ حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد.

فقام الطنافسي فقعد حاتم فتوضأ ثلاثًا ثلاثًا ، حتى إذا غسل الذراعين ، غسل أربعًا .

فقال له الطنافسي : يا هذا ، أسرفت .

---

(١) انظر « البداية والنهاية » (٩/ ١٨٣) ط. دار الغد العربي .

قال له حاتم : فبماذا ؟، قال : غسلت أربعًا .

فقال حاتم : يا سبحان الله ! أنا في كفٍّ من ماء أسرفت ، وأنت في هذا الجمع كلِّه لم تُسرف ؟ فعلم الطنافسي أنه أراده بذلك [١] .

الموقف الثاني : دخل حاتم الأصم المدينة المنورة ، فاستقبله أهل المدينة .

فقال حاتم : يا قوم أي مدينة هذه ؟

قالوا : مدينة رسول الله ﷺ .

قال حاتم : فأين قصر رسول الله ﷺ فأصلي فيه ركعتين ؟

قالوا : ما كان له قصر ، إنما كان له بيت لاطئ (أي بالطين).

قال حاتم : فأين قصور الصحابة ؟

قالوا : ما كان لهم قصور ، إنما كانت لهم بيوت لاطئة .

قال حاتم : يا قوم ، هذه مدينة فرعون وجنوده .

فذهبوا به إلى السلطان . فقالوا : هذا الأعجمي يقول : هذه مدينة فرعون وجنوده.

قال الوالي : ولِمَ ذاك ؟

قال حاتم : لا تعجل عليَّ ، أنا رجل أعجمي غريب ، دخلت المدينة ، فقلت: مدينة من هذه ؟

قالوا : مدينة رسول الله ﷺ .

قلت : فأين قصر رسول الله ﷺ فأصلي فيه ركعتين ؟

قالوا : ما كان له قصر ، إنما كان له بيت لاطئ .

قلت : فلأصحابه بعده ؟

---

(١) انظر « الحلية » (٨/ ٨٠) وكذلك « تلبيس إبليس » ، (ص/ ٢٢٥، ٢٢٦) لابن الجوزي رحمه الله .

قالوا : ما كان لهم قصور ، إنما كانت لهم بيوت لاطئة ، لقد قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١] فأنتم بمن تأسيتم ، برسول الله ﷺ وأصحابه أو بفرعون أول من بنى بالجص والآجر ؟ فخلوا عنه وعرفوه (١).

غاية الزهد مع الإمام أبي عبد الله :

عن إبراهيم بن شبيب بن شيبة قال : كنا نتجالس في الجمعة ،فأتى رجل عليه ثوب واحد ، ملتحف به ، فجلس إلينا ، فألقى مسألة ، فما زلنا نتكلم في الفقه حتى انصرفنا .

ثم جاءنا في الجمعة المقبلة ، فأحببناه وسألناه عن منزله فقال: أنزل الحربية ، فسألناه عن كُنيته فقال : أبو عبد الله ، فرغبنا في مجالسته، ورأينا مجلسنا مجلس فقه ، فمكثنا بذلك زمانًا ثم انقطع عنا ، فقال بعضنا لبعض: ما حالنا ، قد كان مجلسنا عامرًا بأبي عبد الله ، وقد صار موحشًا .

فوعد بعضنا بعضًا إذا أصبحنا أن نأتي الحربية ، فنسأل عنه ، فأتينا الحربية ، وكنا عددًا ، فجعلنا نستحي أن نسأل عن أبي عبد الله ، فنظرنا إلى صبيان قد انصرفوا من الكتاب ، فقلنا : أبو عبد الله ؟ فقالوا : لعلكم تعنون الصياد ؟ قلنا: نعم ، قالوا : هذا وقته ، الآن يجيء ، فقعدنا ننتظره ، فإذا هو قد أقبل متزرًا بخرقة وعلى كتفه خرقه ، ومعه أطيار مذبَّحة وأطيار أحياء ، فلما رآنا تبسَّم إلينا، وقال: ما جاء بكم ؟ فقلنا : فقدناك ، فقد كنت عمرت مجلسنا ، فما غيبك؟ عنا قال : إذًا أصدقكم ، كان لنا جار ، كنت أستعير منه كل يوم ذلك الثوب الذي كنت آتيكم فيه ، وكان غريبًا ، فخرج إلى وطنه ، فلم يكن لي ثوب آتيكم فيه ، هل لكم أن تدخلوا المنزل فتأكلوا مما رزق الله عز وجل ؟ فقال بعضنا لبعض: ادخلوا منزله ، فجاء إلى الباب فسلَّم ، ثم صبر قليلاً ، ثم دخل فأذن

---

(١) انظر « الحلية » (٨/ ٨١ ، ٨٢) وكذلك « تلبيس إبليس » ، (ص/ ٢٢٦، ٢٢٧).

لنا، فدخلنا ، فإذا هو قد أتى بقطع من البواري ، فبسطها لنا ، فقعدنا ، فدخل إلى المرأة فسلَّم إليها الأطيار المذبَّحة ، وأخذ الأطيار الأحياء ، ثم قال : أنا آتيكم إن شاء الله عن قريب ،فأتى السوق فباعها واشترى خبزاً ، وقد صنعت المرأة ذلك الطير ، وهيأته ، فقدم إلينا خبزاً ولحم طير ، فأكلنا ، فجعل يقوم يأتينا بالملح والماء ، فكلما قام .

قال بعضنا لبعض : رأيتم مثل هذا ، الا تُغيرون أمره وأنتم سادة أهل البصرة؟ فقال أحدهم : عليَّ خمسمائة . وقال الآخر : عليَّ ثلاثمائة. وقال هذا وقال هذا ، وضمن بعضهم أن يأخذ له من غيره ، فبلغ الذي جمعوا في الحساب خمسة آلاف درهم ، فقالوا : قوموا بنا نذهب فنأتيه بهذا ، ونسأله أن يُغير ما هو فيه.

فقمنا فانصرفنا على حالنا ركبانًا ، فمررنا بالمربد (السوق) ، فإذا محمد بن سليمان أمير البصرة قاعد في منظرة له فقال : يا غلام، ائتني بإبراهيم بن شبيب ابن شيبة من بين القوم فجئت فدخلت عليه ، فسألني عن قصتنا ومن أين أقبلنا ، فصدقته الحديث ، فقال : أسبقكم إلي برِّه ، يا غلام، ائتني ببودرة دراهم ، فجاء به ، فقال : ائتني بغلام فراش . فجاء ، فقال : احمل هذه البودرة مع هذا الرجل حتى تدفعها إلى من أمرناه ، ففرحت ثم قمت مسرعًا ، فلما أتيت الباب سلَّمت ، فأجابني أبو عبد الله ، ثم خرج إليَّ فلما رأى الفراش والبودرة على عنقه ، كأني سفيت (ذروت) في وجهه الرماد ، وأقبل عليَّ الوجه الأول ، فقال مالي ولك يا هذا ؟ أتريد أن تفتنني ؟!!

فقلت : يا أبا عبد الله ، اقعد حتى أخبرك أنه من القصة كذا وكذا ، وهو الذي يُعلم أحد الجبارين ـ يعني محمد بن سليمان ـ ولو كان أمرني أن أصنعها حيث أرى ، لرجعت إليه ، فأخبرته أني قد وضعتها ، فالله الله في نفسك . فازداد عليَّ غيظًا ، وقام فدخل منزله ، وأصفق الباب في وجهي فجعلت أُقدم وأؤخر ، ما أدري ما أقول للأمير ، ثم لم أجد بدًا من الصدق فجئت فأخبرته

الخبر، فقال : حروري والله ، يا غلام عليَّ بالسيف ، فجاء بالسيف ، فقال له خذ بيد هذا الغلام حتى يذهب بك إلى هذا الرجل ، فإذا أخرجه إليك ، فاضرب عنقه وائتني برأسه .

قال إبراهيم : فقلت : أصلح الله الأمير ، الله الله، فوالله لقد رأيناه رجلاً ما هو من الخوارج ، ولكني أذهب فآتيك به . وما أريد بذلك إلا افتداءً منه .

قال : فضمننيه فمضيت حتى أتيت الباب ، فسلَّمت ، فإذا المرأة تئن وتبكي، ثم فتحت الباب ، وتوارت ، فأذنت لي ، فدخلت ، فقالت : ما شأنكم وشأن أبي عبد الله ؟!!

فقلت : ما حاله ؟ قالت : دخل فمال إلى الرَّكي ، فنزع منها ماء ،فتوضأ ، ثم سمعته يقول : اللهم اقبضني إليك ولا تفتني ثم تمدد وهو يقول ذلك فلحقته وقد قضى فهو ذاك ميت ، فقلت : يا هذه ، إن لنا قصة عظيمة ، فلا تُحدثوا فيه شيئًا .

فجئت محمد بن سليمان وأخبرته الخبر فقال : أنا أركب فأصلي على هذا. قال : وشاع خبره بالبصرة فشهده الأمير وعامة أهل البصرة ، رحمة الله عليه[1].

الزاهد الكبير محمود شكري الألوسي ـ رحمه الله ـ :

لقد كان الألوسي ـ رحمه الله ـ يعيش حياة قاسية في ظل الاحتلال ، وكان في حاجة شديدة إلى المال ، ولأن الأتراك قد أصابوا الناس في أرزاقهم ، فلما عرف ذلك المعتمد البريطاني السامي (برسي كوكسن) أمر إلى الشيخ فأهداه ٣٠٠ جنيه إنجليزيا ، وكلف مندوبًا بتقديمها إليه ، فلما جاء إلى الألوسي وقدمها، رفض الألوسي أن يقبلها بتاتًا .

وقال : « خير لي أن أموت جوعًا من أن آخذ مالاً لم أتعب في كسبه » .

فألح عليه المندوب فقال الألوسي ـ رحمه الله ـ : لا تكثر من إلحاحك لئلا

(١) انظر كتابنا « الأخبار من تراجم الأخيار » (٢/ ١٠٩ ، ١١٠) لم يطبع بعد .

أطردك من بيتي طردًا لا عودة إليه ، فخرج المندوب من عنده ، وتدارس موضوع فقه الألوسي ، فطلب من بعض أصدقائه أن يفكروا في وظيفة له ، فقرر المندوب أن يوليه قاضي قضاة بغداد .

ورفض الألوسي هذا المنصب وقال : إن هذا المنصب يستلزم علمًا زاخرًا ، وذمة لا غبار عليها ، ووقوفًا تامًا على الفقه ، وأنا لا أشعر بذلك .

عبد الرحمن بن عوف :

عن عبد الرحمن بن أزهر أن عثمان بن عفان اشتكى رُعافًا ، فدعا حُمران فقال : اكتب لعبد الرحمن العهد من بعدي ، فكتب له ، وانطلق حُمران إلى عبدالرحمن فقال : البُشرى ، قال : وما ذاك ؟ قال : إن عثمان قد كتب لك العهد من بعده .

فقام عبد الرحمن بين القبر والمقام ، فدعا وقال : اللهم إن كان من تولية عثمان إياي هذا الأمر فأمتني قبله . فلم يمكث إلاستة أشهر حتى قبضه الله .

قال الذهبي : من أفضل أعمال عبد الرحمن بن عوف ، عزله نفسه من الأمر وقت الشورى ، واختياره للأمة من أشار به أهل الحلّ والعقد ، فنهض في ذلك أتم نهوض على جمع الأمة على عثمان ولو كان محابيًا فيها لأخذها لنفسه [1] .

---

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (١/ ٨٨ ، ٨٩) ط. الرسالة .

رابعًا : الخشوع في الصلاة

مما لا شك فيه البتة ، أن الخشوع في الصلاة من عوامل تزكية النفوس ، بل هي ركيزة الأعمال كلها .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقال عز وجل : ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة وذلك الدهر كله »** (١) .

وعن بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : **« بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة »** (٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى النبي ﷺ رجل أعمى فقال : يا رسول الله إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد ؟ فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له فيصلي في بيته فرخص له فلما ولى دعاه فقال : **« هل تسمع النداء بالصلاة ؟»** قال : نعم . قال : **« فأجب »** (٣) .

---

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه مسلم في « صحيحه » (٢٢٨) .

(٢) **الحديث صحيح** : أخرجه أبو داود (٥٦١) ، والترمذي في « سننه » (٢٢٣) ، وله شواهد من حديث أنس الذي أخرجه ابن ماجه (٧٨١) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٢١٢) ، وله شاهد آخر من حديث سهل بن سعد الساعدي أخرجه الحاكم في «المستدرك » (٢/ ٢١٢) ، والحديث بهذه الشواهد صحيح .

(٣) **الحديث صحيح** : أخرجه مسلم في « صحيحه » (٦٥٣) .

وعن بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **إن العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر** » [١] .

وعن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة** » [٢] .

و« الخشوع » في أصل اللغة : الانخفاض ، والذل ، والسكون . قال تعالى: ﴿ **وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ** ﴾ [الرحمن:١٠٨] . أي سكنت ، وذلت ، وخضعت ، ومنه وصف الأرض بالخشوع . وهو يبسها ، وانخفاضها وعدم ارتفاعها بالري والنبات . قال تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً** ﴾ [فصلت: ٣٩].

و« الخشوع » الانقياد للحق ، وهذا من موجبات الخشوع .

قال الجُنيد : الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب .

وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب ، وثمرته على الجوارح ، وهي تظهره .

وكان حذيفة رضي الله عنه يقول : « إياكم وخشوع النفاق ، فقيل له : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن ترى الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع » .

ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة ، فقال : « يا صاحب الرقبة ، ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب ، إنما الخشوع في القلوب » .

---

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه الترمذي في « سننه » (٢٦٢٣) ، وقال : حديث حسن صحيح، والنسائي في « سننه » (١/ ٢٣١ ، ٢٣٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٥٥) ، وصححه ، وابن ماجه (١٠٧٩) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٧) ، وصححه وأقره الذهبي .

(٢) **الحديث صحيح** : أخرجه مسلم في « صحيحه » (٨٢) .

وقال حذيفة رضي الله عنه : أول ما تفقدون من دينكم الخشوع ، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة ، وربَّ مصلٍّ لا خير فيه ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيها خاشعًا [(١)] .

درجات الخشوع :

الدرجة الأولى : « التذلل للأمر ، والاستسلام للحكم ، والاتضاع لنظر الحق» .

التذلل للأمر : تلقيه بذل القبول والانقياد والامتثال ، ومواطأة الظاهر الباطن، مع إظهار الضعف ، والافتقار إلى الهداية للأمر قبل الفعل ، والإعانة عليه حال الفعل ، وقبوله بعد الفعل .

وأما الاستسلام للحكم : فيجوز أن يريد به : الحكم الديني الشرعي ، فيكون معناه : عدم معارضته برأي أو شهوة .

ويجوز أن يريد به : الاستسلام للحكم القدري ، وهو عدم تلقيه بالتسخط والكراهة والاعتراض .

ويضيف ابن القيم قائلا : والحق أن « الخشوع » هو الاستسلام للحكمين.

وأما الاتضاع لنظر الحق : فهو اتضاع القلب والجوارح وانكسارها لنظر الرب إليها ، وإطلاعه على تفاصيل ما في القلب والجوارح ، وهذا أحد التأويلين في قوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦] .

فخوفه من هذا المقام : يوجب له خشوع القلب لا محالة ، وكلما كان أشد استحضارًا له كان أشد خشوعًا وإنما يفارق القلب إذا غفل عن اطلاع الله ، ونظره إليه .

والتأويل الثاني : أنه مقام العبد بين يدي ربه عند لقائه .

---

(١) انظر « مدارج السالكين » (١/ ٥٥٩ ، ٥٦٠) ط. دار الحديث .

فعلى الأول : يكون من باب إضافة المصدر إلى الفاعل .

وعلى الثاني : ـ وهو الأليق بالآية ـ يكون من باب إضافة المصدر إلى المخوف . والله أعلم .

الدرجة الثانية : « ترقب آفات النفس والعمل ، ورؤية فضل كل ذي فضل عليك . وتنسم نسيم الفناء » .

يريد : انتظار ظهور نقائص نفسك وعملك وعيوبها لك . فإنه يجعل القلب خاشعًا لا محالة لمطالعة عيوب نفسه وأعماله نقائصهما : من الكبر ، والعجب ، والرياء ، وضعف الصدق ، وقلة اليقين ، وتشتت النية ، وعدم تجرد الباعث من الهوى النفساني ، وعدم إيقاع العمل على الوجه الذي ترضاه لربك وغير ذلك من عيوب النفس ، ومفسدات الأعمال .

وأما رؤية فضل كل ذي فضل عليك : فهو أن تراعي حقوق الناس فتؤديها ، ولا ترى أن ما فعلوه من حقوقك عليهم ، فلا تعاوضهم عليها ، فإن هذا من رعونات النفس وحماقاتها ولا تطالبهم بحقوق نفسك ، وتعترف بفضل ذي الفضل منهم ، وتنسى فضل نفسك .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله وقدس روحه ـ يقول : «العارف لا يرى على أحد حقًا ، ولا يشهد له على غيره فضلا، ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب ، ولا يضارب » .

الدرجة الثالثة : « حفظ الحرمة عند المكاشفة ، وتصفية الوقت من مراءاة الخلق، وتجريد رؤية الفضل » .

أما حفظ الحرمة عند المكاشفة : فهو ضبط النفس بالذل والانكسار ، عن البسط والإذلال ، الذي تقتضيه المكاشفة ، فإن المكاشفة توجب بسطًا ، ويخاف منه شطح ، إن لم يصحبه خشوع يحفظ الحرمة .

وأما تصفية الوقت من مراءاة الخلق : فلا يريد به أن يصفي وقته عن الرياء ،

فإن أصحاب هذه الدرجة أجل قدراً وأعلى من ذلك .

وإنما المراد أن يُخفى أحواله عن الخلق جهده ، كخشوعه وذله وانكساره ، لئلا يراها الناس فيعجبه إطلاعهم عليها ، ورؤيتهم لها ، فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع الله .

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله وقدس روحه - من ذلك أمراً لم أُشاهده من غيره ، وكان يقول كثيراً : مالي شيء ، ولا مني شيء، ولا في شيء ، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

أنا المُكَدّي وابن المكدي   وهكذا كان أبي وجدي

وكان إذا أثنى عليه في وجهه يقول : « والله إني إلى الآن أُجدد إسلامي كل وقت ، وما أسلمت بعد إسلامًا جيداً » .

وأما تجريد رؤية الفضل : فهو أن لا يرى الفضل والإحسان إلا من الله ، فهو المانّ به بلا سبب منك ، ولا شفيع لك تقدم إليه بالشفاعة ، ولا وسيلة سبقت منك توسلت بها إلى إحسانه .

والتجريد هو تخليص شهود الفضل لوليه ، حتى لا ينسبه إلى غيره ، وإلا فهو في نفسه مجرد عن النسبة إلى سواه ، وإنما الشأن في تجريده في الشهود ، ليطابق الشهود الحق في نفس الأمر [1] .ا.هـ .

يقول سعيد بن المسيب : من جلس في المسجد فإنما يجالس ربه فما حقه أن يقول إلا خيراً .

فإن قيل ما تقولون في صلاة من عدم خشوعه : هل يعتد بها أم لا؟

يقول الإمام ابن القيم: أما الاعتداد بها في الثواب : فلا يعتد له فيها ، إلا بما عقل فيه منها ، خشع فيه لربه ، قال ابن عباس : ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها .

(١) انظر « مدارج السالكين » (١/ ٥٥٩ ، ٥٦٠) ط. دار الحديث .

وإن غلب عليه عدم الخشوع فيها ، وعدم تعلقه ، فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها على مذهبين :

المذهب الأول : يرى وجوب الإعادة ، منهم أبو عبد الله بن حامد من أصحاب أحمد ، وأبو حامد الغزالي وقالوا :

(أ) الخشوع والعقل ،روح الصلاة ولبها ومقصودها ، فكيف يعتد بصلاة فقدت روحها !!.

(ب) استشهدوا بحديث الترمذي : « **واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه** » .

المذهب الثاني : قالوا : ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح أنه قال : « **إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع الأذان فإذا قُضي الأذان أقبل فإذا ثوب بها أدبر فإذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول اذكر كذا وكذا ما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل إن يدري كم صلى فإذا لم يدر أحدكم كم صلى ثلاثًا أو أربعًا فليسجد سجدتين وهو جالس** » [(١)] .

وقالوا : شرائع الإسلام على الأفعال الظاهرة ، وأما حقائق الإيمان الباطنة : فتلك عليها شرائع الثواب والعقاب ، فلله تعالى حكمان :

(أ) حكم في الدنيا على الشرائع الظاهرة وأعمال الجوارح .

(ب) حكم في الآخرة على الظواهر والبواطن ولهذا كان النبي ﷺ يقبل علانية المنافقين ويكلُ أسرارهم إلى الله فيناكحون ، ويرثون ، ويورثون [(٢)] .

قُلتُ : والرأي الثاني هو الأرجح ، وكذا رجحه الإمام ابن القيم ، فإن

---

(١) **الحديث صحيح** : بلفظ « **إذا نودي بالصلاة** » أخرجه البخاري في «صحيحه»(٢/ ٦٩ ، ٧٠) ، ومسلم في « صحيحه » (٣٨٩) ، (١٩) ، وقوله : التثويب : الإقامة . قاله النووي (ص/ ٣٣٧) .

(٢) انظر « مدارج السالكين » (١/ ٥٦٧) ط . دار الحديث .

صاحب العقل اللاهي في الصلاة ليس له إلا ما عقل هذا من ناحية الثواب وحكمه لله ، ولكنها صلاة مسقطة للفرض وليست بموجبة للإعادة ، بل هو مخير إن شاء أعاد ، وإن شاء لم يعد .

وخير شاهد لنا قوله ﷺ : « **من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة** » [(١)] .

فإن قيل : هل يعيد صلاة الأربعين يومًا أم لا ؟؟؟

نقول : لاشك أن الفرض يسقط عنه بالأداء ، ولكنه محروم الثواب ، مثل الذي يصلي في أرض مغصوبة فإنه لا يلزمه الإعادة ولكن ثوابه غير واصل .

ويقول الإمام النووي في هذا الشأن : فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلوات الأربعين ليلة فوجب تأويله . والله أعلم.

وعلى هذا فإن الرأي الذي ذهب إليه الغزالي [(٢)] ، وأبو عبد الله بن حامد ليس هو المعتمد والمختار عندنا . والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

وهناك الجم الكثير من الأحاديث الضعيفة التي تُروي في هذا الشأن مثل :

« **من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً** » [(٣)] .

« **لا يقبل الله من عبد عملاً حتى يشهد قلبه مع بدنه** » [(٤)] . . . الخ .

---

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه مسلم في « صحيحه » « ح » (٢٢٣٠) .

(٢) انظر « الإحياء » (١/ ٢٧٥، ٢٧٦) ط. دار المنار .

(٣) **الحديث ضعيف** : رواه الطبراني وأسنده ابن مردويه في « تفسيره » من حديث ابن عباس بإسناد لين ، وضعفه الشيخ الألباني ،وراجع « ضعيف الجامع » (١/ ٨٤٢) برقم (٥٨٣٤).

(٤) **الحديث ضعيف** : رواه أبو منصور الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث أبي بن كعب وإسناده ضعيف ، قاله الحافظ العراقي ـ رحمه الله ـ « الإحياء » (١/ ٢٦٢) ط. المنار بتحقيقي .

صور مشرقة من حفاظ السلف على الصلاة وخشوعها :

* سعيد بن المسيب :

قيل لسعيد بن المسيب إن طارقًا يريد قتلك ، فتغيب ، فقال : بحيث لا يقدر الله عليّ ؟

فقيل له : اجلس في بيتك ، فقال : أسمع : حَيّ على الفلاح ، ولا أجيب؟! [(١)] .

* أبو رفاعة العدوي :

قال أبو رفاعة العدوي : « ما عزبت عن سورة البقرة منذ علمنيها رسول الله ﷺ ، أخذت معها ما أخذت من القرآن ، وما وجع ظهري من قيام الليل قط».

كان أبو رفاعة ذا تعبد وتهجد .

قال حميد بن هلال : خرج أبو رفاعة في جيش عليهم عبد الرحمن بن سمرة ، فبات تحت حصن يصلي ليله ، ثم توسد ترسه فنام ، وركب أصحابه ، وتركوه نائمًا فبصر به العدو ، فنزل ثلاثة أعلاج فذبحوه رضي الله عنه [(٢)] .

محي الليل صــلاة لا يقطعهـــا ... إلا بدمع الإشـفـاق مُنسجـــم

مسبحًا لك جُنح الليــل محتمـــلاً ... ضراً من السهد أو ضراً من الـورم

رضية نفسه لا تشـتكي ســأمًا ... وما على الحب إن أخلصت من سأم

* وراد العجلي :

روى ابن قدامة المقدسي عن حفص بن غياث قال : كنت أرى وراد العجلي

---

(١) انظر « تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٥٠ ، ٢٥١) ط. دار الغد العربي .

(٢) انظر « سير أعلام النبلاء » (٣/ ١٥، ١٦) ط. دار الرسالة ، وراجع كتابنا « الأخبار من تراجم الأخيار » « و انظر « الطبقات » لابن سعد (٧/ ٦٩) ورجال هذا الأثر ثقات. والله أعلم .

يأتي المسجد مقنع الرأس ، فيعتزل ناحية ، فلا يزال مصليا وداعيًا وباكيًا ما شاء الله من النهار ، ثم يخرج ثم يعود فيصلي الظهر فهو كذلك بين صلاة ودعاء وبكاء حتى يصلي العشاء ، ثم يخرج لا يكلم أحدًا ، ولا يجلس إلى أحد ، فسألت عنه رجلاً من حيه ووصفته له : فقلت : شاب من صفته ومن هيأته ، فقال : بخ يا أبا عمر تدري عمن تسأل ؟: ذاك وراد العجلي ، الذي عاهد الله أن لا يضحك حتى ينظر إلى وجه رب العالمين .

قال أبي : فكنت إذا رأيته بعد ذلك على هيئته [١] .

* أويس القرني :

عن الربيع بن خثيم قال : أتيت أويسًا القرني ، فوجدته قد صلى الصبح وقعد، فقلت : لا أشغله عن التسبيح ، فلما كان وقت الصلاة قام فصلى إلى الظهر ، فلما صلى الظهر صلى إلى العصر ، فلما صلى العصر قعد يذكر الله إلى المغرب ، فلما صلى المغرب صلى إلى العشاء ، فلما صلى العشاء ، صلى إلى الصبح ، فلما صلى الصبح جلس ، فأخذته عينه ، ثم انتبه فسمعته يقول : «اللهم إني أعوذ بك من عينٍ نوامة ، وبطن لا تشبع » [٢] .

كان أويس إذا أمسى يقول : هذه ليلة الركوع ، فيركع حتى يصبح ، وكان إذا أمسى يقول : هذه ليلة السجود فيسجد حتى يصبح وكان يقول : لأعبدن الله في الأرض كما تعبده الملائكة في السماء .

* أبو مسلم الخولاني ـ رحمه الله ـ :

روي أن رجلين أتيا أبا مسلم فلم يجداه في منزله ، فأتيا المسجد فوجداه يركع فانتظراه ، فأحصى أحدهما أنه ركع ثلاثمائة ركعة ، والآخر أربعمائة ركعة،

---

(١) الأثر رجاله ثقات كلهم .

(٢) انظر « تنبيه المغترين » (ص/ ١١٠) للشعراني ط. صبيح ، وانظر كذلك « الاعتصام» (١/ ٣٠٩) للإمام الشاطبي و« الزهاد الأوائل » (ص/ ٨٤ ـ ٨٩).

قبل أن ينصرف .

فقالا له : يا أبا مسلم ، كنا قاعدين خلفك ننتظرك .

فقال : إني لو عرفت مكانكما ، لانصرفت إليكما ، أن تحفظا عليّ صلاتي وأقسم لكما بالله ، إن خير كثرة السجود ليوم القيامة (١) .

وعلق أبو مسلم ـ رحمه الله ـ سوطًا في المسجد فكان يقول : أنا أولى بالسوط من البهائم ، فإذا فتر مشق (ضرب) ساقيه سوطًا أو سوطين .

وكان يقول : أيظن أصحاب محمد ﷺ أن يسبقونا إليه ، والله لأزاحمنهم عليه حتى يعلموا أنهم خلفوا بعدهم رجالاً (٢) .

* الربيع بن خُثيم :

بعدما سقط شقه كان يهادي بين رجلين إلى مسجد قومه ، وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يقولون : يا أبا يزيد ، لقد رخص الله لك لو صليت في بيتك، فيقول : إنه كما تقولون ، ولكني سمعته ينادي : حيَّ على الفلاح ، فمن سمع منكم حيَّ على الفلاح فليجبه ولو زحفًا ، ولو حبواً .

اشترى ـ رحمه الله ـ فرسًا بثلاثين ألفًا ، فغزا عليها ، ثم أرسل غلامه يسار يحتش وقام يصلي، وربط فرسه فجاء الغلام فقال : يا ربيع ، أين فرسك ؟ قال: سُرقت يا يسار .

قال : وأنت تنظر إليها ؟

قال : نعم يا يسار ، إني كنت أناجي ربي عز وجل ، فلم يشغلني عن مناجاة ربي شيء ، اللهم إنه سرقني ولم أكن أسرقه ، اللهم إن كان غنيًا فاهده ، وإن كان فقيراً فأغنه ، ثلاث مرات (٣) .

(١) انظر « تاريخ ابن عساكر » (٩/ ١٧ ، ١٨) .
(٢) انظر ترجمته أيضًا في « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٩) ، وصور من حياة التابعين .
(٣) انظر « مختصر قيام الليل » (ص/ ٢٦ ، ٢٧) ، وكذلك « إحياء علوم الدين » و«كتابنا « التراجم ».

*** مُرَّة الطيب :**

قال الذهبي : يُقال له : مرة الخير ، لعبادته وخير عمله ، وثقه يحيى بن معين، وبلغنا عنه أنه سجد لله حتى أكل التراب جبهته [١] .

وكان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة ، فلما ثقل وبدن صلى أربعمائة ركعة[٢].

إذا أنت لم ترحل بزاد من التُّقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على أن لا تكون كمثلـه ... وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

*** الإمام أحمد بن حنبل :**

يقول ابنه عبد الله : كان أبي يصلي في كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة ، فلما مرض من تلك الأسواط أضعفته فكان يصلي كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة[٣].

*** عمير بن هانئ :**

أخرج الإمام الترمذي في « أبواب الدعاء » : عن مسلمة بن عمرو قال : كان عُمير بن هانئ يصلي كل يوم ألف ركعة ، ويسبح مائة ألف تسبيحة .

قال أبو العالية : كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام لأسمع منه ، فأتفقد صلاته ، فإن وجدته يحسنها أقمت عليه ، وإن أجده يضيعها رحلت ولم أسمع منه ، وقلت : هو لما سواها أضيع [٤] .

---

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٧٥ ، ٧٦) .

(٢) انظر « الحلية » (٤/ ١٦٢) .

(٣) انظر « سير أعلام النبلاء » (١١/ ٢١٢) ، وانظر كتابنا «الجامع المتين في شتى أمور الدين» .

(٤) انظر « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٢٠٩) .

*** زين العابدين علي بن الحسين :**

عن أبي نوح الأنصاري قال : وقع حريق في بيت فيه على بن الحسين وهو ساجد ، فجعلوا يقولون : يا ابن رسول الله ، النار النار .

فما رفع رأسه حتى أطفئت ، فقيل له في ذلك ، فقال : ألهتني عنها النار الأخرى .

وكان إذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة ، فقيل له ذلك فقال : تدرون بين يدي من أقوم ، ومن أناجي ؟!

وكان إذا توضأ اصفر .

قال الذهبي وابن عساكر : بلغني أنه كان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة إلى أن مات ، وكان يسمى زين العابدين لعبادته [(١)]:

إذا طلب الناس علـم القـرآ ن كانت قريش عليه عيـالا

وإن قيل أين ابن بنت الرسول نلت بذلك فرعًا طـوالا

نجـوم تهلّلُ للمُدلجـين جبالٌ تُوِّرتْ علمًا جبـالا

*** عروة بن الزبير :**

عن هشام ، أن أباه وقعت في رجله الأكلة ، فقيل له : ألا ندعو لك طبيبًا؟؟

قال : إن شئتم . فقالوا : نسقيك شرابًا يزول فيه عقلك ؟؟

فقال : امض لشأنك ، ما كنت أظن أن خلقًا يشرب ما يزيل عقله حتى لا يعرف ربه .

فوضع المنشار على ركبته اليسرى ، فما سمعنا له حسًا ، فلما قطعها جعل يقول : لئن أخذت فقد أبقيت ، ولئن ابتليت فقد عافيت ، وما ترك جزأه بالقرآن

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٣٩٢) .

تلك الليلة [١] .

*** دانيال عليه السلام :**

ذكر ابن قيم الجوزية ، وذكر ذلك ابن كثير : ذكر علي بن أبي طالب أن بختنصر أتى بدانيال، فأمر به فحبس في جب وأضرى أسدين ثم خلى بينهما وبينه، ثم فتح عليه بعد خمسة أيام فوجده قائمًا يصلي والأسدين في ناحية الجب لم يعرضا له.

فقال له : ما قلت حين دفع عنك ؟

قال : قلت : « الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ، والحمد لله الذي لا يخيب من رجاه ، والحمد لله الذي لا يكل من توكل عليه إلى غيره ، والحمد لله الذي هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل ، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد لله الذي يكشف عنا ضرنا بعد كربتنا ، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحسانًا ، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة » [٢].

وعن يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق عن أبي خالد بن دينار ، ثنا أبو العالية قال : لما افتتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريرًا عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف ، فحملناه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فدعا له كعبًا فنسخه بالعربية ، فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا .

فقلت لأبي العالية : من هذا ؟؟ قال : سيركم أموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد .

---

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٤٣٠) وأما الرواية الأخرى فراجعها في «عدة الصابرين» للإمام ابن القيم ـ بتحقيقي .

(٢) هذا الأثر أخرجه ابن أبي الدنيا ، وراجع « قصص الأنبياء » (ص/ ٤٦٠) للحافظ ابن كثير ـ بتحقيقي ، وراجع « عدة الصابرين » (ص/ ١٤٨) بتحقيقي ، للإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ وانظر كذلك « كتاب الأموال » لأبي عبيد .

فقلت : فما صنعتم بالرجل ؟؟ قال : حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه.

قلت : فما يرجون منه ؟؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون .

قلت : من كنتم تظنون الرجل ؟

قال : رجل يقال دانيال . قلت : منذ كم وجدتموه قد مات ؟؟

قال : منذ ثلاثمائة سنة . قلت : ما تغير منه شيء ؟؟

قال : إلا شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية ، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظًا من ثلاثمائة سنة فليس بنبي بل هو رجل صالح ، لأن عيسى ابن مريم ليس بينه وبين رسول الله نبي بنص الحديث الذي في البخاري ، والفترة التي كانت بينهما أربعمائة سنة ، وقيل ستمائة وقيل ستمائة وعشرون سنة ، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من موت دانيال ، وإن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر ، فإنه قد يكون رجلاً آخر إما من الأنبياء أو الصالحين ، ولكن قريب الظنون أنه دانيال ؛ لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجونًا .

وقد روي بإسناد صحيح إلى أبي العالية أن طول أنفه شبراً ، وعن أنس بن مالك بإسناد جيد أن طول أنفه ذراع ، فيحتمل علي هذا أن يكون رجلاً من الأنبياء الأقدمين قبل هذا المدد والله أعلم [١].

---

(١) انظر « قصص الأنبياء » (ص/ ٤٦١) لابن كثير - بتحقيقي - ط. دار المنار .

* أبو الحسين بن سنان :

إن العالم الزاهد الإمام أبا الحسن بن سنان رضي الله عنه دخل على حاكم مصر أحمد بن طولون ذات يوم وقال له : يا ابن طولون اتق الله !! فتعجب الجالسون حوله واستشاط ابن طولون غضبًا وبعد ذلك قال لحراسه : جوعوا له الأسد ثلاثة أيام ، فجوع الأسد حتى اشتد به الجوع ، وكاد أن يأكل كل ما أمامه، من بشر أو حيوان ، ولو كان خشبًا أو حجراً ، وأدخلوا العالم قبل الأسد في حجرة ليخلو به الأسد الجائع ، وجاء حارس الأسد بالأسد ، وأدخله على العالم أبي الحسن ،وأغلق الباب عليهما ، ليخلو الأسد بفريسته ،وبعد يوم أراد الحارث أن يرفع تقريراً إلى الأمير .

ففتح الباب على الأسد وظن أنه سيجد بقايا العالم من دم وعظام ،ولكنه رأى العالم ساجداً لله تعالى والأسد واقف في حراسته ، لم يمسه بسوء ، والعابد يقول في سجوده : « سبحان ربي الأعلى » والأسد مطأطئ رأسه لربه الأعلى ، فرفع الحارس ما شاهده إلى الأمير .

فقال الأمير : ائتوني بهذا العالم . فجيء به ودخل على الأمير مرفوع الرأس عزيزاً بالله .

فقال له الأمير : كيف حالك ؟

فقال الإمام : حالي بخير كما تراني .

فقال الأمير : كيف كان شعورك عندما دخل الأسد عليك ؟

فقال العالم : كنت أقرأ قوله تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ .

فقال الأمير : فماذا كنت تخاف والأسد معك ؟؟

فقال العالم : كنت أخاف أن يمسني الأسد بلعابه ، فينجس ثوبي فلا أستطيع الصلاة .

وبعد ذلك شكره الأمير وعفا عنه وقبل نصيحته وأطلق سراحه (١) .

وقال ابن تيمية :

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن يأتنا من عنده يأتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس لي دفع المضرات
وليس لي دونه مولى يُدبِّرني ... ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتي
إلا بإذن من الرحمن خالقنا ... إلى الشفيع كما قد جاء في الآيات
ولست أملك شيئًا دونه أبدًا ... ولا شريك أنا في بعض ذرات
ولا ظهير له ، كي يستعين به ... كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لي وصف ذات لازم أبدًا ... كما الغنى أبدًا له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم ... وكلهم عنده عبد له آتي
فمن بغى مطلبًا من غير خالقه ... فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي
والحمد لله مليء الكون أجمعه ... ما كان منه وما من بعد قد يأتي (٢)

* الإمام ثابت البناني :

قال يوسف بن عطية : سمعت ثابتًا يقول لحميد الطويل : هل بلغك يا أبا عبيد ، أن أحدًا يصلي في قبره إلا الأنبياء ؟ قال : لا . قال ثابت : اللهم إن أذنت لأحد أن يصلي في قبره فأذن لثابت أن يصلي في قبره .

قال الإمام الذهبي : إن هذه الدعوة استجيبت له ، وإنه رئي بعد موته يصلي

(١) انظر « الأنيس » (ص/ ٨٥ ، ٨٦) للشيخ صفوك ط. المنار .
(٢) انظر « مدارج السالكين » (١/ ٥٦٢ ، ٥٦٣) ط. دار الحديث .

في قبره .

وقال المبارك بن فضالة : دخلت على ثابت البناني في مرضه ،وهو في علوّ له ، وكان لا يزال يذكر أصحابه ، فلما دخلنا عليه ، قال : يا إخوتاه ، لم أقدر أن أصلي البارحة كما كنت أصلي ولم أقدر أن أصوم كما كنت أصوم ولم أقدر أن أنزل إلى أصحابي ، فأذكر الله عز وجل كما كنت أذكره معهم . ثم قال : «اللهم إذا حبستني عن ثلاث ، فلا تدعني في الدنيا ساعة ، إذا حبستني أن أصلي كما أريد ،وأصوم كما أريد ، وأذكرك كما أريد ، فلا تدعني في الدنيا ساعة » فمات من وقته .

وعن حرمي قال : استعان رجلٌ بثابت البناني على القاضي في حاجة ، فجعل لا يمر بمسجد إلا نزل فصلى ، حتى انتهى إلى القاضي وقد ختمت القماطر، فكلمه في حاجة الرجل فقضاها ، فأقبل ثابت على الرجل فقال : لعله شق عليك ما رأيت ؟؟ (١) .

قال : نعم . قال ثابت : ما صليت صلاة إلا طلبت إلى الله تعالى في حاجتك .

وقد بكى رضي الله عنه حتى فقد عينيه وأصبح أعمى .

* الإمام علي بن عبد الله بن عباس :

قال الذهبي : قال ابن المبارك : كان له خمسمائة شجرة ، يصلي عند كل شجرة ركعتين ، وذلك كل يوم وليلة (٢) .

* صفوان بن سليم الزهري :

عن محمد بن منصور قال : قال صفوان بن سليم : أعطى الله عهداً أن

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (٥/ ٢٢٢) .
(٢) انظر « السير » (٥/ ٢٥٢ ، ٢٥٣) .

لا أضع جنبي على فراش حتى ألحق بربي ، فبلغني بعد ذلك أن صفوان عاش بعدها أربعين سنة لم يضع جنبه ، ولما حضرته الوفاة ، واشتد به النزع وهو جالس ، فقالت له ابنته : يا أبه ، لو وضعت جنبك ؟؟

فقال : يا بُنَيه ، إذا ما وفيت لله بالنذر والحلف . فمات وإنه لجالس .

قال سفيان : فأخبرني الحفار الذي يحفر قبور أهل المدينة ، قال : حفرت قبر رجل ، فإذا أنا قد وقعت على قبر فوافيت جمجمة ، فإذا السجود قد أثر في عظام الجمجمة .

فقلت لإنسان : قبر من هذا ؟؟

فقال : أو ما تدري ، هذا قبر صفوان بن سليم [(١)] .

إني معزيك لا إني على ثقة   من الخلود ولكن سنّة الديـــن
فما المعزَّى بباق بعد ميتـــه   ولا المعزِّي ولو عاش إلى حين

* الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ :

قال محمد بن أبي حاتم الوراق : كان أبو عبد الله يصلي في وقت السحر ثلاث عشرة ركعة ، وكان لا يوقظني في كل ما يقوم ، فقلت : أراك تحمل على نفسك ولم توقظني .

قال الإمام : إنك شاب ، ولا أحب أن أُفسد عليك نومك .

وقال محمد بن أبي حاتم : دُعي محمد بن إسماعيل إلى بستان بعض أصحابه ، فلما صلى بالقوم الظهر قام يتطوع ، فلما فرغ من صلاته رفع ذيل قميصه ، فقال لبعض من معه : انظر ، هل ترى تحت قميصي شيئًا ؟ فإذا زنبور قد أبره (لسعه) في ستة عشر أو سبعة عشر موضعًا ، وقد تورم من ذلك جسده .

---

(١) انظر « السير » (٥/ ٣٦٧ ، ٣٦٨) .

فقال له بعض القوم : كيف لم تخرج من الصلاة أول ما أبرك ؟؟

قال البخاري : كنت في سورة ، فأحببت أن أتمها [١] .

قال البخاري ـ رحمه الله ـ : خَرَّجْتُ كتاب الصحيح من زُهاء ستمائة ألف حديث في ست عشرة سنة ، وما وضعت فيه حديثًا إلا اغتسلت وصليت ركعتين[٢].

* الإمام الجُنيد بن محمد ـ رحمه الله ـ :

يقول الإمام الذهبي : قيل : إنه كان له في سوقه ورده كل يوم ثلاثمائة ركعة، وكذا كذا ألف تسبيحة . وقال ابن نجيد : كان الجنيد يفتح حنوته ويدخل، فيسبل الستر ويصلي أربعمائة ركعة .

قال محمد بن إبراهيم : رأيت الجنيد في النوم ، فقلت له : ما فعل الله بك؟ قال : طاحت تلك الإشارات وغابت تلك العبارات ، وفنيت العلوم ، ونفدت تلك الرسوم ، وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في جوف السحر [٣] .

إن لله عـبادًا فطنـا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علمـوا أنها ليست لحي سكنـا

جعلوها لجة واتخـذوا صالح الأعمال فيها سُفُنا

وكان محمد بن نصر المروزي يصلي والزنبور قاعد على جبهته ، فسال الدم على وجهه ولم يحرك ساكنًا [٤] .

وروي عن ابن خفيف ، أنه كان به وجع الخاصرة، فكان إذا أصابه أقعده عن

---

(١) انظر « السير » (١٢/ ٤٣٩ ـ ٤٤٢) .

(٢) انظر « صحيح البخاري بشرح السندي والقسطلاني وشيخ الإسلام » (ص/١) ط. العثمانية .

(٣) انظر « السير » (١٤/ ٦٧ ـ ٦٩).

(٤) انظر « سير أعلام النبلاء » (١٤/ ٣٦ ، ٣٧).

الحركة ، فكان إذا نودي للصلاة ، يحمل على ظهر رجل ، فقيل له : لو خففت على نفسك ؟

قال : إذا سمعت حي على الفلاح ولم تروني في الصف ، فاطلبوني في المقبرة [(١)] .

* موقف عظيم للإمام الجليل ابن الطَّلاية :

هو أبو العباس أحمد بن أبي غالب ، قال أبو المظفر بن الجوزي : سمعت مشايخ الحربية يحكون عن آبائهم وأجدادهم ، أن السلطان مسعوداً لما أتى بغداد ، كان يحب زيارة العلماء والصالحين ، فالتمس حضور ابن الطَّلاية .

فقال للرسول: أنا في هذا المسجد ، انتظر داعي الله في النهار خمس مرات.

فذهب الرسول ، وبلغ السلطان بما حدث .

فقال السلطان : أنا أولى بالمشي إليه.

فزاره فرآه يصلي الضحى ، وكان يطيلها ، يصليها بثمانية أجزاء ، فصلى معه بعضها .

فقال له الخادم : السلطان قائم على رأسك .

فقال الإمام : أين مسعود ؟ قال : أنا هنا .

فقال الإمام : يا مسعود اعدل ، وادع لي ، الله أكبر ، ثم دخل في صلاته ، فبكى السلطان ، وكتب ورقه بخطه بإزالة المكس والضرائب ، وتاب توبة صادقة[(٢)] .

الصلاة محبوبة الصالحين :

كان صلة بن أُشيم العدوي كثير الصلاة والقيام ، لما زُفت إليه معاذة العدوية

---

(١) انظر« السير » (١٦/ ٣٤٦) .

(٢) انظر « السير » (٢٠/ ٢٦١، ٢٦٢) .

[ليلة الدخلة] أدخله ابن أخيه الحمام ، ثم أدخله بيتًا مظلمًا مطيبًا ، فقام يصلي حتى أصبح ، وفعلت معاذة كذلك ، فلما أصبح عاتبه ابن أخيه على فعله .

فقال له : إنك أدخلتني بيتًا أذكرتني به النار ، ثم أدخلتني بيتًا أذكرتني به الجنة ، فما زالت فكرتي فيهما حتى أصبحت (١) .

وروى الإمام الطبراني في الكبير عن عنبسة بن الأزهر قال : تزوج الحارث ابن حسان وكان له صحبة .

فقيل له : أتخرج وإنما بنيت بأهلك في هذه الليلة ؟؟

فقال : والله إن امرأة تمنعني من صلاة الغداة في جمع لامرأة سوء (٢) .

أما نحن فلا نصلي إلا في الضراء وصدق فينا قول القائل :

يا أيها الظالم في فعله والظلم مردود على من ظلم

إلى متى أنت وحتى متى تشكو المصيبات وتنسى النعم ؟

سورة من القرآن أحبُ من نفسي :

عن جابر بن عبد الله قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ يعني في غزوة ذات الرقاع فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين فحلف أن لا أنتهى حتى أهريق دمًا في أصحاب محمد فخرج يتبع أثر النبي ﷺ فنزل النبي ﷺ منزلا فقال « من رجل يكلؤنا » فانتدب رجل من المهاجرين [عمار بن ياسر] ورجل من الأنصار [عباد بن بشر] فقال : «كونا بفم الشعب » قال فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب اضطجع المهاجري وقام الأنصاري يصلي وأتى الرجل فلما رأى شخصه عرف أنه ربيئة للقوم فرماه بسهم فوضعه فيه فنزعه حتى رماه بثلاثة أسهم ثم ركع وسجد ثم انتبه صاحبه فلما عرف أنهم قد نذروا به هرب ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدم قال سبحان الله ألا أنبهتني أول ما رمى قال كنت في سورة

(١) انظر « التخويف من النار » (ص/ ٢٢ ، ٢٣) للإمام ابن رجب الحنبلي .
(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » وقال الهيثمي (٢/ ٤١) بإسناد حسن .

أقرؤها فلم أحب أن أقطعها [١] .

وكأني بعباد بن بشر حينما أصابه السهم يقول :

أما والذي لا خلد إلا لوجهه ... ومن ليس في العز المنيع له كفو

لئن كان بدء الصبر مرًا مذاقه ... لقد يجني من غبته الثمر الحلو[٢]

وقال أحمد بن موسى الثقفي:

نبئت خولة أمس قد جزعت ... من أن تنوب نوائب الدهر

لا تجزعي يا خول واصبري ... إن الكرام بنوا على الصبر[٣]

وكأني به يقول بلسان الحال :

حكم المنية في البرية جاري ... ما هذه الدنيا بدار قرار

اقضوا مآربكم سراعًا إنما ... أعماركم سفر من الأسفار

من يرجو طيب العيش فيها إنما ... يبني الرجاء على شفير هار

والعيش كل العيش بعد فراقها ... في دار أهل السبق أكرم دار[٤]

ملحوظة هامة : هل الزيادة في العبادة بدعة أم لا ؟؟

يرى بعض العلماء أن العمل أفضل من الانهماك في العبادة ويستدلون بحديث: « **إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ...** » [٥] .

قلت : الانهماك في العبادة ليس ببدعة والأدلة على ذلك :

---

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه الحاكم في « المستدرك » وصححه ، وأبو داود في « سننه » وعلقه البخاري في « صحيحه » وفي « الدلائل » والدارقطني .

(٢) انظر « عدة الصابرين » (ص/ ٩٩) بتحقيقي ط. المنار .

(٣) انظر « عدة الصابرين » (ص/ ٩٩) بتحقيقي ط. المنار .

(٤) انظر « عدة الصابرين » (ص/ ٢٤٨) بتحقيقي ط. المنار .

(٥) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري في « صحيحه » (١/ ٨٧ ، ٨٨) ، (١١/ ٢٥٤ ، ٢٥٥) ، والنسائي (٨/ ١٢١ ، ١٢٢) .

(١) عن أنس رضي الله عنه قال : كان أخوان على عهد النبي ﷺ فكان أحدهما يأتي النبي ﷺ والآخر يحترف فشكا المحترف أخاه إلى النبي ﷺ فقال : **« لعلك ترزق به »** [(١)] .

(٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : **« من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين »** [(٢)].

(٣) وعن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ صلى حتى انتفخت قدماه فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال : **« أفلا أكون عبداً شكوراً »** .

ففي رواية البخاري : « حتى ترم قدماه أو ساقاه » .

وعن مسلم : « حتى ورمت قدماه » .

ولفظ عندهما : « حتى تفطر رجلاه» .

قال الحافظ ابن حجر : (٣/ ١٨ ، ١٩) : « لا اختلاف بين هذه الروايات، فإنه إذا حصل الانتفاخ أو الورم ، حصل الزلع والتشقق » والله أعلم.

وقال أيضًا (٣/ ١٩ ، ٢٠) : وفي الحديث دليل على اختيار النبي ﷺ تطويل صلاة الليل . . .

واعترض البعض عن أن بعض السلف قد يصلي أربعمائة ركعة أو خمسمائة أو ألف . . . » . لابد أن نضع عدة أمور في الاعتبار :

الأمر الأول : أننا لن نصل إلى درجة السلف لا في العمل ولا في العلم ،

---

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه الترمذي (٢٣٤٦) وقال النووي : رواه الترمذي بإسناد صحيح على شرط مسلم ، « الرياض » (ص/ ٦٠) بتحقيقي .

(٢) **الحديث صحيح** : أخرجه أبو داود وابن حبان عن ابن عمر - انظر « السلسلة الصحيحة» (٦٤٢) « صحيح الجامع » (٦٤٣٩) .

وقد ذكر أخبار هؤلاء « الذين صلوا » أئمة السلف مثل الإمام ابن القيم في «مدارج السالكين » (٢/ ٩٨ ، ٩٩) : وكان بعض السلف يصلي في اليوم والليلة أربعمائة ركعة . . ، وكذا قال الإمام الذهبي في « سير أعلام النبلاء » الجم الكثير، وقد نقلنا جملة من ذلك آنفًا ، وذكر ذلك أيضا الإمام ابن رجب الحنبلي ونقلنا بعضها ، وذكر ذلك الإمام ابن الجوزي في « المنتظم » حتى في تلبيس إبليس وكذلك الإمام عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل : فهل نصل نحن إلى رتبة هؤلاء حتى نأتي ونقيس هذه الأمور على العقل .

أسأل كل من يعترض على ذلك : هل يستطيع أن يؤلف كتابًا يقع في ثمانمائة مجلد كما فعل ابن عقيل ، وله مصنفات أخرى ؟!!.

الأمر الثاني : نحن أهل السنة والجماعة إن شاء الله نؤمن بالكرامة ، التي تحدث للولي ، وقد حدثت أشياء للإمام ابن تيمية تفوق الخيال ، وجاءت بأسانيد صحيحة .

أما هؤلاء الذين سلكوا مسلك ابن حزم الظاهري ـ رحمه الله ـ في إنكار الكرامة حيث قال عن الكرامة : فلا يجوز البتة وجود ذلك ، لا من ساحر ولا من صالح بوجه من الوجوه لأنه لم يقم برهان بوجود ذلك ، ولا صح به نقل ، وهو ممتنع في العقل . . . » (الفصل : ٤/ ٣) .

والذي أوقع الإمام ابن حزم في ذلك ، أنه قاس الأمور على العقل ، ونحن ولله الحمد نؤمن بالكرامات ، فلماذا لا يكون ذلك كرامة لهؤلاء الأئمة .

وقال ابن القيم عن شيخ الإسلام : « أنه كان ينسخ في يوم واحد ،ما ينسخه النساخون في أسبوع « قد يرجع هذا إلى علو الهمة أو إلى كرامة لهم رضي الله عنهم » .

الأمر الثالث : يجب ألا نخضع الدين للعقل ، وليس كل مخالف العقل ليس صحيحًا وليراجع في ذلك كتاب الإمام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ « الفرقان» ففيه بيان ما حدث للتابعين من أحوال لو استخدمنا العقل لشط منا الأمر ، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

خامسًا : التوكل على الله

لاشك أن التوكل على الله يزكي النفوس ، ويزيد بهجتها ، ويُنير بصيرتها ، ويقودها إلى تقواها ، فالتوكل من أجلِّ المنازل وأعظمها .

تعريف التوكل :

يقول تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ٥١].

ويقول تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣].

ويقول تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣].

ويقول تعالى : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة : ٤].

ويقول تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ [النمل : ٧٩].

ويقول تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ [الفرقان : ٥٨].

ويقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣].

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢].

ويقول ﷺ في الذين يدخلون الجنة بغير حساب : « هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون » (١) .

---

(١) الحديث صحيح : أخرجه البخاري في « صحيحه » (١٠/ ١٣٠ ، ١٣١) ، ومسلم في « صحيحه » (٢٢٠) ولكنه زاد « ولا يرقون » وذهب كثير من الأئمة إلى أن هذه الزيادة شاذة ، لأنه ثبت عن الرسول ﷺ أنه رقى ، وثبت أن جبريل رقى رسول الله ﷺ، وقد رقى أغلب الصحابة ، وانظر هذا البحث في «فتح الباري » (١١/ ٣٥٤).

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول : « **اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت . اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون**»[١] .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : « ﴿ **حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قالوا : ﴿ **إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ »[٢] .

وعن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»[٣] .

معناه : تذهب أول النهار خماصًا ، أي : ضامرة البطون من الجوع ، وترجع آخر النهار بطانًا ؛ أي : ممتلئة البطون [٤] .

وعن أم المؤمنين أم سلمة ، واسمها هند بنت أبي أُمية حذيفة المخزومية رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا خرج من بيته قال: «**بسم الله توكلت على الله، اللهم إنا نعوذ بك من أن نزل أو نُزلّ أو نَضل أو نُضل أو نظلم أو نُظلم أو نَجهل أو يُجهل علينا**»[٥] .

---

(١) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري في « صحيحه » (١١/ ١٠١) ، ومسلم في «صحيحه » (٢٧١٧) وقوله : « بك خاصمت » أعداء الدين ،وقوله : « **أسلمت** » أي استسلمت لحكمك وأمرك .

(٢) **الحديث صحيح** : أخرجه البخاري (٨/ ١٧٢) .

(٣) **الحديث صحيح** : أخرجه الترمذي في « سننه » (٢٣٤٥) وقال : حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وابن ماجه (٤١٦٤) وأحمد في « المسند » (١/ ٣٠) والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٨) وصححه.

(٤) انظر « الرياض » (ص/ ٥٥) بتحقيقي .

(٥) **الحديث صحيح** : أخرجه الترمذي (٣٤٢٣) وقال : حديث حسن صحيح ، =

وعن جابر رضي الله عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه فنزل رسول الله وتفرق الناس يستظلون بالشجر فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة وعلّق بها سيفه ونمنا نومةً فإذا رسول الله ﷺ يدعونا وإذا عنده أعرابي فقال : « **إن هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتا فقال من يمنعك مني فقلت الله** » ثلاثًا ولم يعاقبه وجلس [١] .

وأحاديث التوكل كثيرة وأكثر من أن تُحصى .

التوكل وحقيقة الأمر :

إن التوكل حال مركبة من مجموع أمور ، لا تتم حقيقة التوكل إلا بها ، فأول ذلك : معرفة بالرب وصفاته : من قدرته ، وكفايته ، وقيوميته ، وانتهاء الأمور إلى عمله وصدورها عن مشيئته وقدرته ، وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل .

يقول الإمام ابن القيم : يقول شيخنا رضي الله عنه : ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف ولا من القدرية النفاة القائلين : بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء ، ولا يستقيم أيضًا من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله ، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الأثبات [٢] .

يقول الإمام الغزالي : فإن التوكل منزل من منازل الدين ، ومقام من مقامات الموقنين ، بل هو من معالي درجات المقرَّبين وهو في نفسه غامض من حيث العلم، ثم هو شاق من حيث العمل [٣] .

= وأبو داود (٥٠٩٤) ، وأحمد في « المسند » (٦/ ٣٠٦) ، (٣١٨ ـ ٣٢٢) ، وابن ماجه (٣٨٨٤) ، والنسائي (٨/ ٢٦٨) ، واللفظ هنا لأبي داود .

(١) الحديث صحيح : أخرجه البخاري في « صحيحه » (٦/ ٧١) ، ومسلم في «صحيحه» (٨٤٣) ولأبي بكر الإسماعيلي رواية أطول في « صحيحه » .

(٢) انظر « مدارج السالكين » (٢/ ١٢٤، ١٢٥) ط. دار الحديث.

(٣) انظر « الإحياء » (٤/ ٣٥٣) ط. المنار .

قال الإمام أحمد بن حنبل : التوكل عمل القلب ، ومعنى ذلك : أنه عمل قلبي: ليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات.

ومن الناس : من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول : هو علم القلب بكفاية الرب للعبد .

درجات التوكل :

الدرجة الأولى : التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض ، فالمتوكل يسكن إلى وعده ، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه ، فالتوكل حماية ، والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية . فالتوكل صفة المؤمنين ، والتسليم صفة الأولياء ، والتفويض صفة الموحدين [1] .

الدرجة الثانية : إثبات في الأسباب والمسببات .

فإن من نفاها فتوكله مدخول ، وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي : أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل ، وأن نفيها تمام التوكل .

واعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة ، لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه ، فهو كالدعاء الذي جعله الله سببًا في حصول المدعو به ، فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سببًا لنيل شيء ، فإن التوكل فيه المدعو بحصوله : إن كان قد قُدِّر حصل توكل أم لم يتوكل ، دعا أولم يدع ، وإن لم يقدر لم يحصل ، توكل أيضًا أو ترك التوكل .

وصرح هؤلاء : أن التوكل والدعاء عبودية محضة ، لا فائدة لهما إلا ذلك ولو ترك العبد التوكل والدعاء ما فاته شيء مما قدر له ، ومن غلاتهم من يجعل الدعاء بعدم المؤاخذة على الخطأ والنسيان عدم الفائدة .

وجواب هذا الوهم الباطل : أن يقال : بقي قسم ثالث غير ما ذكرتم من

---

(١) انظر « مدارج السالكين » (٢/ ١٢٢) و« الإحياء » (٤/ ١٨١) .

القسمين لم تذكروه ، وهو الواقع ،وهو أن يكون قضى بحصول الشيء عند حصول سببه من التوكل والدعاء ، فنصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب وقضى الله بحصوله إذا فعل العبد سببه ، فإذا لم يأت بالسبب امتنع المسبب ، وهذا كما قضى بحصول الولد إذا جامع الرجل من يحبلها ،فإذا لم يجامع لم يخلق الولد . قضى بحصول الشبع إذا أكل ، والري إذا شرب ، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو وقضى بحصول الحج والوصول إلى مكة إذا سافر وركب الطريق ، فإذا جلس في بيته لم يصل إلى مكة ، وقضى بدخوله الجنة إذا أسلم ،وأتى بالأعمال الصالحة ،فإذا ترك الإسلام ولم يعمل الصالحات ، لم يدخلها أبداً . . فَوزَانَ ما قاله منكرو الأسباب : أن يترك كل من هؤلاء السببَ الموصل ، ويقول: إن كان قضى لي وسبق في الأزل حصول الولد ، والشبع ، والري ، والحج ونحوها، فلابد أن يصل إليَّ ، تحركت أو سكنت ، وتزوجت أو تركت ،سافرت أو قعدت . . . .

يقول عن هؤلاء ابن القيم : فهل يعد أحد هذا من جملة العقلاء ؟ وهل البهائم إلا أفقه منه ؟ فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل ، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب .

الدرجة الثالثة : رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل .

فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده ، بل حقيقة التوكل : توحيد القلب ، فما دامت فيه علائق الشرك ، فتوكله معلول مدخول ، وعلى قدر تجريد التوحيد : تكون صحة التوكل ، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه ، فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ومن هاهنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب ،وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح ، فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب ، وتعلق الجوارح بها ، فيكون منقطعًا منها متصلاً بها . والله أعلم .

الدرجة الرابعة : اعتماد القلب على الله ، واستناده إليه ، وسكونه إليه .

بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ، ولا سكون إليها بل يخلع السكون إليها من قلبه ويلبسه السكون إلى مسببها ، وعلامة هذا : أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها .

وقال بعض العارفين : المتوكل كالطفل ، لا يعرف شيئًا يأوي إليه إلا ثدي أمه ، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه.

الدرجة الخامسة : حسن الظن بالله عز وجل .

فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له ، يكون توكلك عليه ، ولذلك فسَّرَ بعضهم التوكل بحسن الظن بالله .

والتحقيق : أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه . إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ، ولا التوكل على من لا ترجوه .

الدرجة السادسة : استسلام القلب له ، وانجذاب دواعيه كلها إليه ، وقطع منازعاته .

وهي : أن يكون العبد بين يدي الله ، كالميت بين يدي الغاسل ، يقلبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير .

وهذا معنى قول بعضهم : التوكل إسقاط التدبير ، يعني الاستسلام لتدبير الرب لك.

الدرجة السابعة : التفويض .

وهو روح التوكل ولبه وحقيقته ،وهو إلقاء أموره كلها إلى الله ، وإنزالها به طلبًا واختياراً ، لا كرهًا واضطراراً ، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره : كل أموره إلى أبيه ، العالم بشفقته عليه ورحمته ، وتمام كفايته ، وحسن ولايته له ، وتدبيره له .

فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة انتقل منها إلى درجة « الرضى » ، وهي

ثمرة التوكل .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : « المقدور يكتنفه أمران : التوكل قبله ، والرضى بعده ، فمن توكل على الله قبل الفعل ، ورضي بالمقضي له بعد الفعل ، فقد قام بالعبودية أو معنى هذا » .

وقول يحيى بن معاذ وقد سُئل : متى يكون الرجل متوكلاً ؟ فقال : إذا رضى بالله وكيلاً .

س١ : هل يصح أن يقال : إن أحداً وكيل الله ؟

يقول الإمام ابن القيم : لا ، فإن الوكيل من يتصرف موكله بطريق النيابة ، والله عز وجل لا نائب له ولا يخلفه أحد ، بل هو الذي يخلف عبده ، كما قال النبي ﷺ : « **اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل** » ، على أنه لا يمتنع أن يطلق ذلك باعتبار أنه مأمور بحفظ ما وكله فيه ، ورعايته والقيام به ، أما توكيل العبد ربه : فهو تفويضه إليه ، وعزل نفسه عن التصرف وإثباته لأهله ووليه[١] .

قال سعيد بن جبير رضي الله عنه : لدغتي عقرب فأقسمت على أمي لتسترقين، فناولت الراقي يدي التي لم تُلدغ [٢] .

وقال إبراهيم بن أدهم : سألت بعض الرهبان : من أين تأكل ؟ فقال لي : ليس هذا العلم عندي ولكن سل ربي من أين يطعمني ؟[٣].

وقال بعضهم: متى رضيت بالله وكيلاً وجدت إلى كل خير سبيلاً .

---

(١) انظر « مدارج السالكين » (٢/ ١٢٢ ـ ١٢٤) ط. دار الحديث .

(٢) انظر « الإحياء » (٤/ ٣٨٠) ط. المنار .

(٣) انظر « الإحياء » (٤/ ٣٨٠) ط. المنار .

صور مشرقة من توكل السلف الصالح :

* الخليل إبراهيم عليه السلام :

يقول تعالى : ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٧ ، ٩٨] .

حينما لم تبق لهم شبهة ، ولا برهان : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء :٦٨ ـ ٧٠].

ذلك أنهم شرعوا يجمعون حطبًا من جميع ما يمكنهم من الأماكن ، فمكثوا مدة يجمعون له حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبًا لحريق إبراهيم ، ثم عمدوا إلى حوية [الأرض الصلبة الملساء ، يحاط عليها بالحجارة أو التراب] عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار ، فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم يُرَ مثله قط .

وكأني بإبراهيم عليه السلام يقول بلسان الحال :

لعمرك إني أرى مصرعي ولكني أعدُّ إليها الخُطا

لعمرك هذا ممات الرجال فمن رام موتًا شريفًا فذا

ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق ، صنعه لهم رجل من الأكراد، يقال له « هيزن » وكان أول من صنع المجانيق ، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك .

فما وُضِعَ الخليل في كفة المنجنيق مقيدًا مكتوفًا ثم ألقوه منه إلى النار قال : حسبنا الله ونعم الوكيل . وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء

فقال: يا إبراهيم : ألك حاجة ؟[1].

فقال إبراهيم : أما إليك فلا ! ثم قال : حسبنا الله ونعم الوكيل .

فلم تأكل النار إلا الوثائق التي قيد بها .

فعن أبي هريرة أنه قال : **أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم ، إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال : نعم الرب ربك يا إبراهيم !!**

*** أبو قلابة ـ صاحب ابن عباس ـ :**

قال الإمام الذهبي : إن أبا قلابه ممَّن ابتلي في بدنه ودينه ، أُريد على القضاء، فهرب إلى الشام فمات بعريش مصر ، وقد ذهبت يداه ورجلاه وبصره وهو مع ذلك حامدٌ[2] .

فعن عبد الله بن محمد قال : خرجت إلى ساحل البحر مرابطًا وكان رابطُنا يومئذ عريش مصر .

قال الراوي : فلما انتهيت إلى الساحل فإذا أنا ببطيخة ، وفي البطيخة خيمة، فيها رجل قد ذهبت يداه ورجلاه ، وثقل سمعه وبصره ، وماله من جارحةٍ تنفعه إلا لسانه ، وهو يقول : « اللهم أوزعني أن أحمدك حمدًا ، أكافئ به شكر نعمتك التي أنعمت بها عليَّ ، وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلاً».

قلت : والله لآتينَّ هذا ، ولأسألنه أنَّي له هذا الكلام ، فهمٌ أم علمٌ أم إلهامٌ أُلهم ؟ فأتيت الرجل فسلمت عليه ، فقلت : سمعتك وأنت تقول : « اللهم .... تفضيلا » ، فأي نعمة من نعم الله عليك تحمده عليها ، وأيُّ فضيلة تفضل بها عليك تشكره عليها ؟

قال : وما ترى صنع ربي ؟ والله لو أرسل السماء عليَّ نارًا فأحرقتني ، وأمر

---

(١) انظر الإمام ابن كثير « قصص الأنبياء » (ص/ ١٣٢، ١٣٣) ، « مدارج السالكين » (٢/ ١٢١) ط. دار الحديث .

(٢) انظر « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٤٧٤، ٤٧٥) ط. الرسالة .

الجبال فدمّرتني ، وأمر البحار فأغرقتني ، وأمر الأرض فبلعتني ، ما ازددت لربي إلا شكراً ، لما أنعم عليَّ من لساني هذا ، ولكن يا عبد الله إذ أتيتني ، لي إليك حاجة ، قد تراني على أي حالة أنا ، أنا لست أقدر لنفسي على ضرٍّ ولا نفع ، ولقد كان معي بني لي يتعاهدني في وقت صلاتي ، فيوضيني ، وإذا جعت أطعمني ، وإذا عطشت سقاني ، ولقد فقدته منذ ثلاثة أيام ، فتحسسه لي رحمك الله .

فقلت : والله ما مشى خلقُ في حاجة خلقٍ ، كان أعظم عند الله أجراً ممن يمشي في حاجة مثلك ، فمضيت في طلب الغلام ، فما مضيت غير بعيد ، حتى صرت بين كثبان من الرمل ، فإذا أنا بالغلام قد افترسه سبع وأكل لحمه ، فاسترجعت وقلت : أني لي وجه رقيق آتي به الرجل ؟ فبينما أنا مقبل عليه ، إذ خطر على قلبي ذكر أيوب عليه السلام ، فلما أتيته سلمت عليه ، فرد عليَّ السلام، فقال : ألست بصاحبي [والرجل أعمى] ؟ قلت : بلى . قال : ما فعلت في حاجتي ؟

فقلت : أنت أكرم على الله أم أيوب النبي؟ قال : بل أيوب النبي . قلت : هل علمت ما صنع به ربه ؟ أليس قد ابتلاه في ماله وآله وولده ؟ قال : بلى .

قلت : فكيف وجده ؟!

قال : وجده صابراً شاكراً حامداً .

قلت : لم يرض منه بذلك حتى أوحش من أقربائه وأحبائه ، هل علمت؟

قال : نعم .

قلت : فكيف وجده ربه ؟!

قال : صابرا شاكرا حامدا ، أوجز رحمك الله .

قلت له : إن الغلام الذي أرسلتني في طلبه وجدته بين كثبان الرمل ، وقد افترسه سبع فأكل لحمه ، فأعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر .

فقال المبتلى : الحمد لله الذي لم يخلق من ذريتي خلقا يعصيه ، فيعذبه بالنار، ثم استرجع ، وشهق شهقة فمات .

فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، عظمت مصيبتي ، رجل مثل هذا [مقطوع اليدين والرجلين أعمى] . إن تركته أكلته السباع ، وإن قعدت ، لم أقدر على ضر ولا نفع ، فسجيته بشملة كانت عليَّ ،وقعدت عند رأسه باكيا ، فبينما أنا قاعد إذ تهجم عليَّ أربعة رجال .

فقالوا : يا عبد الله ، ما حالك ؟ وما قصتك ؟ فقصصت عليهم قصتي وقصته ، فقالوا لي : اكشف لنا عن وجهه ، فعسى أن نعرفه ، فكشفت عن وجهه ، فانكب القوم عليه ، يقبلون عينيه مرة ، ومنكبيه أخرى ، ويقول : الواحد منهم : بأبي عين طالما غضت عن محارم الله ، وبأبي جسم طالما كان ساجدًا ، والناس نيام . فقلت : من هذا يرحمكم الله ؟

فقالوا : هذا أبو قلابة الجرمي ، صاحب ابن عباس ، ولقد كان شديد الحب لله وللنبي ﷺ فغسلناه وكفّناه بأثواب كانت معنا ، وصلينا عليه ودفنَّاه .

فانصرف القوم وانصرفت إلى رباطي ، فلما جَنَّ عليَّ الليل ، وضعت رأسي فرأيته فيما يرى النائم في روضة من رياض الجنة ، وعليه حُلتان من حُلل الجنة ، وهو يتلو الوحي : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٤].

فقلت : ألست بصاحبي ؟ قال : بلى .

قلت : أني لك هذا ؟ قال : إن لله درجات لا تُنال إلا بالصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء مع خشية الله عز وجل في السر والعلانية [١] .

عجبت للمرء في دنياه تطمعـــه ... في العيش والأجل المحتوم يقطعه

يُمسي ويُصبح في عشواء يخبطها ... أعمى البصيرة والآمال تخـدعـه

يغتر بالدهر مســروراً بصحبته ... وقد تيقن أن الدهـر يصـرعــه

(١) انظر ابن حبان في « الثقات » (٥/ ٢ ـ ٥) .

ويجمع المال حرصًا لا يفارقه وقد درى أنه للغير يجمعه
تراه يشفق من تضييع درهمه وليس يشفق في دين يُضيِّعه
وأسوأ الناس تدبيرا لعاقبة من أنفق العمر في ما ليس ينفعه[1]

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢].

روي أن رجلاً لازم باب عمر رضي الله عنه فإذا هو بقائل يقول : يا هذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى ؟ اذهب فتعلم القرآن فإنه سيغنيك عن باب عمر ، فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر رضي الله عنه ، فإذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة .

فجاء عمر فقال له : إني قد اشتقت إليك فما الذي شغلك عني ؟

قال الرجل : إني قرأت القرآن فأغناني عن عمر وآل عمر .

فقال عمر : رحمك الله فما الذي وجدت فيه ؟

قال الرجل : وجدت فيه : ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فقلت : رزقي في السماء ، وأنا أطلبه في الأرض ، فبكى عمر وقال : صدقت ، فكان عمر رضي الله عنه بعد ذلك يأتيه ويجلس إليه [2] .

* أبو معاوية الأسود :

قيل إنه كان أعمى فإذا قرأ في المصحف أبصر بإذن الله .

قال أحمد بن فضل العكي : غزا أبو معاوية الأسود (وهو أعمى) ، فحضر المسلمون حصنا فيه علج لا يرمي بحجر ولا نشَّاب إلا أصاب فشكوا إلى أبي معاوية ، فقرأ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال: ١٧] ، استروني منه فلما وقف قال : أين تريدون بإذن الله ؟

قالوا : المذاكير . فقال : أي ربِّ قد سمعت ما سألوني فأعطني ذلك . بسم

(١) انظر « جواهر الأدب » (ص/ ٦٥٠) ط. وزارة المعارف العمومية .
(٢) انظر « الإحياء » (٤/ ٣٩٣) ط. المنار .

الله . ثم رمى المذاكير فوقع (١) .

* الشيخ : سعيد بن إسماعيل الحيري :

قال الحاكم : وسمعت أبي يقول : لمَّا قتل أحمد بن عبد الله الخجستاني - الذي استولى على البلاد - الإمام حكيان بن الذهلي ،أخذ في الظلم والعسف ، وأمر بحربة رُكزت على رأس المربعة ، وجمع الأعيان وحلف إن لم يصبوا الدراهم حتى يغيب رأس الحربة فقد أحلوا دماءهم ، فكانوا يقتسمون الغرامة بينهم، فخُصَّ تاجر بثلاثين ألف درهم ، فلم يكن يقدر إلا على ثلاثة آلاف درهم، فحملها إلى أبي عثمان وقال : قد حلف هذا كما بلغك ، ووالله لا أهتدي إلا إلى هذا .

قال : تأذن لي أن أفعل فيها ما ينفعك ؟ قال : نعم .

ففرقها أبو عثمان ،وقال للتاجر امكث عندي ، فما زال أبو عثمان يتردد بين السكّة والمسجد ليلته حتى أصبح ، وأذَّن مؤذِّن ، ثم قال لخادمه : اذهب إلى السوق وانظر ماذا تسمع فذهب ورجع ، فقال : لم أرَ شيئًا ، قال اذهب مرة أخرى، وهو في مناجاته يقول وحقّك لا أقمت ما لم تفرِّج عن المكروبين ، قال: فأتى خادمه الفرغاني يقول : وكفى الله المؤمنين القتال شقَّ بطن أحمد بن عبد الله، فأخذ أبو عبد الله في الإقامة .

قال الذهبي : بمثل هذا يُعظم مشايخ الوقت (٢) .

واهتف بهم أنا من جنود محمد	بايعته فيما يُريح ويُتعب
راياتها خفاقة وسيوفها	صفاقة وجنودها لا تُغلب
واهتزت الدنيا لصوت محمد	الله أكبر شرقُها والمغرِبُ

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (٩/ ٧٧، ٧٨) ط. الرسالة .

(٢) انظر « سير أعلام النبلاء » (١٤/ ٦٢ ـ ٦٤) ط. الرسالة .

* الإمام أبو جعفر الطحاوي الأزدي الحنفي :

قال الكندي : للطحاوي دعوة مجابة .

قال الطحاوي : من طهر قلبه من الحرام فتحت لدعوته أبواب السماء .

دخل يومًا على أمير مصر أبو منصور تكين الجزري الشهير بالجبار ، فلما رأى الإمام الطحاوي داخله الرعب من الطحاوي ، فأكرمه وأحسن إليه ، ثم قال : يا إمام أريد أن أزوجك ابنتي ؟

قال الإمام : لا أفعل ذلك ،فقال له : ألك حاجة في المال ؟

قال الإمام : لا ، قال له الأمير : هل أقطع لك أرضًا ؟ قال : لا .

قال الأمير : فاسألني ما شئت ؟ قال الإمام : وتسمع ، قال : نعم .

احفظ دينك لئلا ينفلت ،واعمل في فكاك نفسك قبل الموت ، وإياك ومظالم العباد ، ثم تركه ومضى [١] .

* عمران بن حصين :

كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه ، فبقي مُلقى على ظهره ثلاثين سنة، لايقوم ولا يقعد ، قد نُقب له سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته، فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء ، فجعل يبكي لما يراه من حاله ، فقال لم تبك ؟ قال : لأني أراك على هذه الحالة العظيمة ، قال : لا تبك ، فإن أحبَّه إلى الله تعالى ، أحبه إليَّ ، ثم قال : أُحدِّثك حديثًا لعل الله أن ينفعك به ، واكتم عليَّ حتى أموت ، إن الملائكة تزورني فآنس بها ، وتُسلِّم عليَّ فأسمع تسليمها ، فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة ، إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة ، فمن يشاهد هذا في بلائه ، كيف لا يكون راضيًا به ؟[٢] .

تصبر ففي اللأواء قد يحمد الصبر ... ولولا صروف الدهر لم يعرف الحر

وإن الذي أبلى هو العون فانتـــدب ... جميل الرضا يبقى لك الذكر والأجر

---

(١) انظر كتابنا « الأخبار من تراجم الأخيار » .

(٢) انظر « إحياء علوم الدين » بتحقيقي ط. المنار.

بحق الذي أعطى ولا تك جازعًا فليس بحزم أن يروعك الضرُّ
فلا نعم تبقى ولا نقمٌ ولا يدوم كلا الحالين عسرٌ ولا يسر
تقلب فهذا الأمر ليس بدائم لديه مع الأيام حُلوٌ ولا مُرٌّ (١)

* الإسلام أغلى من حياتي :

عن الحسن قال : كان رجل بالمصيصة ذاهب النِّصف الأسفل ، لم يبق منه إلا روحه في بعض جسده ، ضريرٌ على سرير مثقوب ، فدخل عليه فقال له : كيف أصبحت يا أبا محمد ؟ قال : ملك الدنيا ،منقطع إلى الله ، مالي إليه من حاجة إلا أن يتوفَّاني على الإسلام .

قال محمد بن أبي القاسم مولى بني هشام : « وعظ عابدٌ جباراً ، فأمر به فقُطعت يداه ورجلاه ، وحُمل إلى متعبَّده ، فجاءه إخوانه يعزونه ، فقال : لا تعزوني ، ولكن هنئوني بما ساق الله إليَّ .

ثم قال : إلهي أصبحت في منزل الرَّغائب ، أنظر إلى العجائب ، إلهي ، أنت تودد بنعمك إلى من يؤذيك ، فكيف توددك إلى من يؤذي فيك ؟ (٢) .

* إنني مدعو على مائدة الله عز وجل :

إن الحجاج بن يوسف الثقفي كان أميراً على الطرق في عهد الخليفة عبد الملك ابن مروان خليفة الدولة الأموية وكان الحجاج لا يأكل إلا إذا أرسل إلى رجل يأكل معه ، وذات يوم وبينما الحجاج في حال صيد في الخلاء إذ حضر وقت الغذاء ، فأرسل حارسه ليأتي له بمن يشاركه الطعام لم يجد الحارس إلا أعرابيًا ينام في ظل جبل ، فأيقظه ، فقام الأعرابي مذعوراً ، وقال للحارس : لم أيقظتني رحمك الله .

فقال الحارس : لتتناول الغذاء مع أمير العراق أتدري من هو ؟

فقال الأعرابي : نعم ، إنه الحجاج بن يوسف الثقفي .

(١) انظر « جواهر الأدب » (ص/ ٦٣٠، ٦٣١).

(٢) انظر « الرضا عن الله » (ص/ ٩٧ ، ٩٨) لابن أبي الدنيا ـ رحمه الله ـ.

فأخذه الحارس معه إلى الحجاج ، ولما وقف الأعرابي أمام الحجاج بن يوسف، قال له الحجاج : اجلس لتتناول معي الغذاء .

فقال الأعرابي : لقد دعاني من هو أفضل منك لأتناول الطعام عنده .

فقال الحجاج : ومن أفضل مني يا أعرابي ؟

فقال الأعرابي : إنني اليوم صائم ، ومدعو على مائدة الله عز وجل .

فقال الحجاج : يا أعرابي أتصوم هذا اليوم ، واليوم شديد الحرارة ؟

فقال الأعرابي : يا حجاج أصومه ليوم أشد منه حراً .

فقال الحجاج : يا أعرابي صم غداً ، وأفطر معي اليوم .

فقال الأعرابي : يا حجاج هل اطلعت على علم الغيب فوجدتني سأعيش إلى الغد ؟

ثم قال الأعرابي : ماذا تريد مني يا حجاج ؟ فقال له : لا أريد منك شيئًا.

فقال له الأعرابي : إذًا فدعني مع الله . ثم انصرف (١) .

* شربة لا ظمأ بعدها :

أخرج البيهقي وابن عساكر - من طريق أبي غالب عن أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى قومي ، فانتهيت إليهم ، وأنا طاوٍ [جائع] ،وهم يأكلون الدم .

فقالوا : هلم ، فقلت : إنما جئتكم أنهاكم عن هذا ، فاستهزؤوا بي وكذبوني وردوني ، فجعلت أعرض عليهم الإسلام ويأبون عليَّ .

فأصابني العطش الشديد ، فقلت لهم : ويحكم اسقوني شربة من ماء فإني شديد العطش .

قالوا : لا ، ولكن ندعك تموت عطشًا .

---

(١) انظر « الأنيس » (ص/ ٨١) ط. المنار .

فاغتظت لذلك وضربت رأسي في العبادة ونمت في الرمضاء في حر شديد ، فنمت فأتاني آتٍ في منامي ،فناولني إناء لم يَرَ الناس أحسن منه ، مليء باللبن ، فأخذته فشربته ، فشبعت ورويت ، فعظم بطني ، وحينما استيقظت ، فلا والله ما عطشت ولا غرثت بعد تلك الشربة .

فقال بعض قومه : أتاكم رجل من سراة قومكم فرددتموه ، اذهبوا إليه فأطعموه من الطعام والشراب ما يشتهي فأتوني بطعام وشراب ، فقلت : لا حاجة لي فيه ، فقالوا : قد رأيناك بجهد .

قلت : إن الله أطعمني وسقاني ، فأريتهم بطني ، فأسلموا عن آخرهم[1] .

وصدق القائل :

يا صاحب الهم إن الهم منفرجٌ	أبشر بـخير فـإن الفـارج الله
اليأس يقطع أحيانًا بصاحـــبه	لا تـيأسنَّ فإن الكـــافـي الله
الله يحدث بعد العسـر ميسـرة	لا تجـزعنَّ فــإن الصـانع الله
إذا ابتليت فثق بالله وارض به	إن الذي يكـشف البلوى هو الله
والله ما لك غير الله مـن أحدٍ	فحسبـــك الله في كل لـك الله

* بئس العبيد أنتم :

حكي عن عبد الواحد بن زيد قال : كنت في مركب ، فطرحتنا الريح إلى جزيرة ، وإذا فيها رجل يعبد صنما ، فقلنا له : يا رجل من تعبد ؟ فأومأ إلى الصنم ، فقلنا إن معنا في المركب من يسوي مثل هذا ، وليس هذا إله يعبد ، قال: فأنتم من تعبدون ؟ قلنا : الله ، قال : وما الله ؟ قلنا : الذي في السماء عرشه ، وفي الأرض سلطانه وفي الأحياء والأموات قضاؤه.

فقال : كيف علمتم به ؟ قلنا : وجه إلينا هذا الملك رسولا كريما فأخبر

(١) انظر كتابنا « الأخبار من تراجم الأخيار » (١/ ١٠٣، ١٠٤) ـ لم يطع بعد ـ .

بذلك. قال : فما فعل الرسول ؟ قلنا : أدى الرسالة ثم قبضه الله ، قال : فما ترك عندكم علامة ؟ قلنا : بلى ، ترك عندنا كتاب الملك ، فقال : أروني كتاب الملك ، فينبغي أن تكون كتب الملوك حسانا .

فأتيناه بالمصحف ، فقال : ما أعرف هذا ، فقرأنا عليه سورة من القرآن ، فلم نزل نقرأ ويبكي حتى ختمنا السورة . فقال : ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يعصي ! ثم أسلم ، وحملناه معنا وعلمناه شرائع الإسلام وسوراً من القرآن ، وكنا حين جَنَّنا الليل ، وصلينا العشاء وأخذنا مضاجعنا ، قال لنا : يا قوم ! هذا الإله الذي دللتموني عليه ، إذا جنه الليل ينام ؟

قلنا : لا ، يا عبد الله ! هو عظيم قيوم لا ينام.

قال : فبئس العبيد أنتم ، تنامون ولا ينام مولاكم ؟ فأعجبنا كلامه ، فلما قدمنا « عبادان » قلت لأصحابي : هذا قريب عهد بالإسلام ، فجمعنا له دراهم وأعطيناه .

فقال : ما هذا ؟ قلنا : تنفقها . فقال : لا إله إلا الله ! دللتموني على طريق ما سلكتموها ، أنا كنت في جزائر البحر أعبد صنما من دونه ولم يضيعني، فهل يضيعني وأنا أعرفه ؟

فلما كان بعد أيام قيل لي : إنه في الموت ، فأتيته ، فقلت له : هل من حاجة؟

فقال : قضي حوائجي من جاء بكم إلى جزيرتي .

قال عبد الواحد : فحملتني عيني ، فمنت عنده ، فرأيت مقابر « عبادان » روضة وفيها قبة ، وفي القبة سرير عليه جارية لم ير أحسن منها ، فقالت : سألت بالله إلا ما عجلت به ، فقد اشتد شوقي إليه فانتبهت وإذا به قد فارق الحياة، فقمت إليه وغسلته وكفنته وواريته ، فلما جن الليل نمت ، فرأيته في القبة مع الجارية ، وهو يقرأ : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم

بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤][1].

* بسر بن أرطاة :

عن العلاء بن سفيان الحضرمي قال : غزا بسر بن أرطاة الروم ، فجعلت ساقته لا تزال تصاب ، فيكمن لهم الكمين ، فيصاب الكمين ، فلما رأي ذلك تخلف في مائة من جيشه ، فانفرد يومًا في بعض أودية الروم فإذا براذين [الجسيم من الخيل والبغال] الذين كانوا يتعقبونه في ساقته ، فنزل عن فرسه فربطه ، ثم دخل الكنيسة فأغلق عليه وعليهم الباب ، فجعلت الروم تعجب من إغلاقه ، فما استقلوا إلى رماحهم حتى صرع منهم ثلاثة ، وفقده أصحابه فطلبوه ، فأتوا ، فعرفوا فرسه ، وسمعوا الجلبة في الكنيسة ، فأتوها فإذا بابها مغلق ، فقلعوا بعض السقف ، ونزلوا عليهم وبسر ممسك طائفة من أمعائه بيده ، والسيف بيده اليمنى ، فلما تمكن أصحابه في الكنيسة سقط بشر مغشيًا عليه فأقبلوا على أولئك، فأسروا وقتلوا ، فأقبلت عليهم الأسارى فقالوا : ننشدكم بالله من هذا ؟ قالوا : هذا بسر بن أرطاة ، فقالوا : والله ما ولدت النساء مثله .

فعمدوا إلى أمعائه ، فردوه في جوفه ، ولم ينخرق منه شيء ، ثم عصبوه بعمائهم ، وحملوه ، ثم خاطوه ، فسلم وعوفي [2] :

إن نفسا ترضى الإسلام دينـــا

ثم ترضى بعـده أن تستكينـــا

أو ترى الإسلام في أرض مهينا

ثم تهوى العيش نفس لن تكونا

في عداد المسلمـين العظمـــاء

---

(١) انظر « التوابين » لابن قدامة المقدسي ط. المنار ، وفي كتابنا « أجمل مائة قصة وقصة » ط. المنار .

(٢) انظر « علو الهمة » (ص/ ٣٠٩) للشيخ محمد المقدم ، وانظر كذلك « سير أعلام النبلاء » (٣/ ٢٧٤) ط. مؤسسة الرسالة . وقال عنه عمر بن الخطاب : رب فتح قد فتحه الله على يديه وراجع « تهذيب ابن عساكر» (٣/ ٢٢١ ، ٢٢٢) .

* التراب يصير طعاما :

روى عبد الرزاق عن معمر ، عن زيد بن أسلم : أن النمرود كان عنده طعام، وكان الناس يفدون إليه للميرة ، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة ، ولم يكن اجتمع به إلا يومئذ فكانت بينهما هذه المناظرة ، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس ، بل خرج وليس معه شيء من الطعام ، فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب ، فملأ منه عدليه وقال : أشغل أهلي إذا قدمت عليهم ، فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام ، فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاما طيبا ، فعملت منهم طعاما ، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه ، فقال : أني لكم هذا ؟ قالت : من الذي جئت به ، فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل [١] .

* الشيخ سيد قطب ـ رحمه الله ـ :

قد طلب منه أن يعتذر للطاغية مقابل إطلاق سراحه ، فقال : « لن أعتذر عن العمل مع الله » وعندما طلب منه كتابة كلمات يقر بها النظام القائم قال : «إن أصبع السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة ، ليرفض أن يكتب حرفًا يقر به حكم طاغية » .

وقال أيضًا : رحمه الله : « لماذا أسترحم ؟ إن سجنت بحق ، فأنا أقبل حكم الحق وإن سجنت بباطل ، فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل » !!

وفي إحدى الجلسات اقترب أحد الضباط منه ، وسأله عن معنى كلمة «شهيد» فرد عليه ـ رحمه الله قائلا : « شهيد يعني أنه شهد أن شريعة الله أغلى من حياته » .

وقد انقطع به حبل المشنقة لحظة إعدامه بالباطل ، فقال :

---

(١) انظر « قصص الأنبياء » (ص/ ١٣٦، ١٣٧) للحافظ ابن كثير ـ بتحقيقي .

« كل جاهليتكم رديئة ، حتى حبالكم رديئة » !!!! (١) .

لعمرك إني أرى مصرعي ولكن أغذ إليه الخطـــا

لعمرك هذا ممات الرجال فمن رام موتًا شريفًا فذا

* الشيخ سعيد الحلبي ـ رحمه الله ـ :

كان الشيخ « سعيد الحلبي » ـ عالم بالشام في عصره ـ في درسه مادا رجليه، فدخل عليه جبار الشام « إبراهيم باشا » ابن « محمد علي » صاحب مصر ، فلم يتحرك له ، ولم يقبض رجليه ، ولم يبدل قعدته ، فتألم الباشا ، ولكنه كتم ألمه، ولما خرج ، بعث إليه بصرة فيها ألف ليرة ذهبية ، فردها الشيخ ، وقال للرسول الذي جاءه بها :« قل للباشا : إن الذي يمد رجليه ، لايمد يده » (٢) .

* الإمام علي بن أبي الطيب :

ذكر الذهبي في ترجمته : إنه حمل إلى السلطان محمود بن سبكتكين ليسمع وعظه ، فلما دخل جلس بلا إذن ، وأخذ في رواية حديث بلا أمر ، فتنمر له السلطان ، وأمر غلاما ، فلكمه لكمة أطرشته ، فعرّفه بعض الحاضرين منزلته في الدين والعلم ، فاعتذر إليه وأمر له بمال ، فامتنع .

فقال السلطان : يا شيخ إن للملك صولة ، وهو محتاج إلى السياسة ، رأيت أنك تعديت الواجب فاجعلني في حلٍّ ، فقال الإمام : « الله بيننا بالمرصاد ، وإنما أحضرتني للوعظ ، وسماع أحاديث الرسول ﷺ ،وللخشوع لا لإقامة قوانين الرئاسة » . فخجل الملك ، واعتنقه :

أحزان قلبي لا تزول حتى أبشـــر بالقبول

وأرى كتابي باليمين وتسر عيني بالرسول

(١) انظر « علو الهمة » للشيخ المقدم (ص/ ١١٠، ١١١) نقلا من كتاب « سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد » (ص/ ٦١ ، ٦٢) .

(٢) انظر كتابنا « الأخبار من تراجم الأخيار » (٢/ ١٥٠) لم يطبع بعد .

* الإمام عطاء بن أبي سعد :

تلميذ شيخ الإسلام أبي إسماعيل الأنصاري .

قال السمعاني : كان ممن يضرب به المثل في إرادة شيخ الإسلام والجد في خدمته ، وله حكايات ومقامات في خروج شيخه إلى بلخ في المحنة .

وقال أيضا : وسمعت أن عطاء قدم للخشبة ليصلب ، فنجاه الله لحسن نيته، فلما أطلق ، عاد إلى التظلم وما فتر ، وخرج من النظام ماشيًا إلى الروم ، فما ركب ، وكان يخوض الأنهار مع الخيل ، ويقول : شيخي في المحنة فلا أستريح. قال لي ابنه محمد عنه ، قال : كنت أعدو في موكب النظام ، فوقع نعلي فما التفت ، ورميت الأخرى ، فأمسك النظام الدابة وقال : أين نعلاك ؟ فقلت : وقع أحدهما ، فخشيت أن تسبقني إن وقفت .

قال : فلمَ رميت الثانية ؟

فقلت : لأن شيخي أخبرنا أن النبي ﷺ نهي أن يمشي الرجل في نعل واحد، فما أردت أن أخالف السنة ، فأعجبه ، وقال : أكتب إن شاء الله حتى يرجع شيخك إلى هراة . وقال لي : اركب بعض الجنائب ، فأبيت ، وعرض عَلَيَّ مالاً، فأبيت .

قال لي ابنه : وقدم أبي بأصبهان ليصلب بعد أن حبسوه مدة ، فقال له الجلاد : صلِّ ركعتين.

قال الإمام : ليس ذا وقت صلاة ، اشتغل بما أمرت به ، فإني سمعت شيخي يقول : إذا علقت الشعير على الدابة في أسفل العقبة ، لا توصلك في الحال إلى أعلاها ، الصلاة نافعة في الرخاء لا في حالة البأس .

فوصل مسرع من السلطان ومعه الخاتم بتسريحه ، فلما أطلق رجع إلى التظلم والتشنيع .

قال السمعاني : سمعت عبد الخالق بن زياد يقول:

أمر بعض الأمراء أن يضرب عطاء الفقاعي في محنة الشهيد عبد الهادي بن شيخ الإسلام مائة ، فبطح على وجهه ،فكان يضرب إلى أن ضرب ستين .

فشكوا كم ضرب خمسين أو ستين ؟ فقال عطاء : خذوا بالأقل احتياطًا ، وحبس مع نساء ، وكان في الموضع أترسة ، فقام بجهد من الضرب ، وأقام الأترسة بينه وبينهن ، وقال : نهى رسول الله ﷺ عن الخلوة بالأجنبية [١] .

قلت : بمثل هؤلاء نهزم اليهود ، بمثل هؤلاء ننشر الإسلام :

أدرك رسول الله أمتك التي ... جاس اليهود خلالها وأقاموا[٢]
عاثوا فسادا بالبلاد كأنهم ... سرطان حل ، فحلت الأورام
قد دنسوا القدس العظيم وأحدثوا ... بالعرب جرحا ليته يلتام
وغدوا وسفك الدم شرع عندهم ... وكأن ترك الآمنين حرام
آذوا البريء ، وعذبوه ،وأعدموا ... إن اليهود حياتهم حرام

نداء الأموات :

يقول المراسل الصحفي الاسترالي توني : أخبرني الزميل باتريك سميث : عن مقتل صديقه الفلسطيني كريم قائلا أردنا أن ندفنه ، فلم نجد كفنا نكفنه فيه ، ولم نعثر عن كفن في بيروت الغربية كلها لأنها نفذت لكثرة الطلب عقب الغارة الإسرائيلية ، واضطررنا لتكفينه بكيس بلاستيكي، وحملناه إلى المقبرة ، وغارات الطائرات الإسرائيلية حتى على المقبرة ، فعدنا أدراجنا لندفنه في حديقة منزل مهجور[٣] .

لا إله إلاالله ، شخص من أمة محمد ، بل مجاهد يكفن في كيس

---

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (٢٠/ ٥٤ ـ ٥٦) ط. مؤسسة الرسالة .
(٢) ملحوظة :هذا شعر ـ لكن لا يستغاث بالنبي ﷺ ولا يتوسل به .
(٣) انظر كتابنا « مصلحة الدعوة بين دعاة الأمس ، ودعاة اليوم » ـ لم يطبع بعد ـ .

بلاستيكي، ونحن هنا نقول مصلحة الدعوة ، هل مصلحة الدعوة في هذه الذلة والمهانة ، والله إن العين لتذرف ، وإن القلوب لتدمي ، وإن القلب ليرتعد من هذا الموقف ، مجاهد يفعل به هكذا .

وصدق القائل على لسان فتاة قتلها اليهود :

إنكم لا تستطيعون أن تبصروني
لأن الأحياء لا يبصرون الموتى
إنني فتاة من فلسطين
في البدء مست النار غدائر شعري
ثم احترقت عيناي ويداي
ثم أصبحت حفنة من رماد
تذروها الرياح
إنني أطرق أبوابكم جميعا
يا أهلي من بعدي
كي تعطوني عهدا

بألا يقتل الأطفال أو يحترقوا على يد اليهود الفجار .

* الخطيب البغدادي :

دخل عليه بعض العلوية ، وفي كمه دنانير ، فقال للخطيب : فلان يسلم عليك ، ويقول لك اصرف هذا في بعض مهماتك .

فقال الخطيب : لا حاجة لي فيه ، وقطب وجهه .

فقال العلوي : كأنك تستقله ؟ ونفض كمه على سجادة الخطيب ، فقام الخطيب مُحمراً وجهه ، وأخذ السجادة وصب الدنانير على الأرض وخرج من المسجد ، قال أحد تلامذة الخطيب : « ما أنسى عزَّ خروج الخطيب ، وذُلَّ ذلك

العلوي ، وهو قاعد على الأرض ، يلتقط الدنانير من شقوق الحصير ويجمعها ».

* الإمام ابن دقيق العيد :

عزل الإمام ابن دقيق العيد نفسه عن القضاء في بعض المرات ، ثم طلب ليولي ، وقام السلطان الملك المنصور « لاجين » له واقفا لما أقبل ، فصار يمشي قليلا قليلا ، وهم يقولون له : « السلطان واقف » فيقول :« أديني بامشي »!! . وجلس معه على الجوخ حتى لا يجلس دونه ، وقبل السلطان من يده ، فقال ابن دقيق العيد : تنتفع بهذا (١) !!!

* المجاهد أبو عبد الله مردنيش :

يقول الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ : من عجيب ما صح عندي من مغازيه ـ يقول ذلك اليسع بن حزم ـ أنه أغار يومًا ، فغنم غنيمة كثيرة ، واجتمع عليه من الروم أكثر من ألف فارس ، فقال لأصحابه وكانوا ثلاث مائة فارس :ما ترون؟؟

فقالوا : نشغلهم بترك الغنيمة .

فقال : ألم يقل القائل : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ [الأنفال: ٦٥].

فقال ابن مورين : يا رئيس ، الله قال هذا ؟

فقال أبو عبد الله : الله يقول هذا وتقعدون عن لقائهم ؟!! قال : فثبتوا فهزموا الروم (٢) .

ولقد كان ـ رحمه الله ـ قصيرا، ومع ذلك أرعب الروم وكانوا يخشون بأسه.

المجاهد أبوإسحاق السرماري :

عن عبيد الله بن واصل قال : سمعت أحمد السرماري يقول ، وأخرج سيفه

---

(١) انظر « علو الهمة » للشيخ المقدم (ص/ ١٠٨) ط. الكوثر .

(٢) انظر « سير أعلام النبلاء » (٢٠/ ٢٣٣ ، ٢٣٤) ط. الرسالة .

فقال : « أعلم يقينا أني قتلت به ألف تركي ، وإن عشت قتلت به ألفا أخرى ، ولولا خوفي أن يكون بدعة لأمرت أن يدفن معي » .

قال إبراهيم بن شماس : كنت أكاتب أحمد بن إسحاق السرماري فكتب إليَّ: إذا أردت الخروج إلى بلاد الغربة في شراء الأسرى ، فاكتب إليَّ ، فكتبت إليه ، فقدم سمرقند ، فخرجنا ، فلما علم جيغويه استقبلنا في عدة من جيوشه، فأقمنا عنده ، فعرض يومًا جيشه ، فمر رجل ، فعظمه ، وخلع عليه ، فسألني عنه السرماري ، فقلت : هذا رجل مبارز ، يعد بألف فارس ، قال : أنا أبارزه فسكت ، فقال جيغويه : ما يقول هذا ؟ قلت : يقول كذا كذا ، قال : لعله سكران لا يشعر ، ولكن غداً نركب .

فلما كان الغد ركبوا فركب السرماري معه عمود في كمه ، فقام بإزاء المبارز، فقصده ، فهرب أحمد حتى باعده من الجيش ، ثم كَرَّ ، وضربه بالعمود فقتله ، وتبع إبراهيم بن شماس ، لأنه كان سبقه ، فلحقه ، وعلم جيغويه ، فجهز في طلبه خمسين فارسًا نقاوة ، فأدركوه ، فثبت تحت تل مختفيا حتى مروا كلهم ، واحدا بعد واحد ، وجعل يضرب بعموده من ورائهم ، إلى أن قتل تسعة وأربعين، وأمسك واحداً ، فقطع أنفه وأذنيه ، وأطلقه ليخبر ، ثم بعد عامين توفي أحمد ، وذهب ابن شماس في الفداء ، فقال له جيغويه : من ذاك الذي قتل فرساننا ؟

قال : ذاك أحمد السرماري ، قال : فلم لم تحمله معك : قلت : توفي ، فصك في وجهي .

وقال : لو أعلمتني أنه هو لكنت أعطيته خمس مائة برذون ـ ضرب من الداوب ـ وعشرة آلاف شاة .

وعن عمران بن محمد المطوعي ، قال : سمعت أبي يقول : كان عمود السرماري عشرة منا (رطلان) ، فلما شاخ جعله اثنى عشر منا ، وكان يقاتل

بالعمود [١] .

أين الذي عنت الفرنج لبأسه ... ذلاً ومنها أدركت ثاراته

من في الجهاد صفاحه ما أعمدت ... بالنصر حتى أعمدت صفحاته

لذ المتاعب في الجهاد ولم تكن ... مذ عاش قط لذاته لذاته

مسعودة غدواته محمودة ... روحاته ميمونة ضحواته

في نصرة الإسلام يسهر دائبا ... ليطول في الجنان سباته

لا تحسبوه مات شخص واحد ... فممات كل العالمين مماته

من لليتامى والأرامل راحم ... متعطف مفضوضة صدقاته

وكعادة البيت المقدس يحزن الـ ... بيت الحرام عليه بل عرفاته

بكت الصوارم والصواهل إذ خلت ... من سلها وركوبها غزواته

والقدس طامحة إليك عيونه ... عجل فقد طمحت إليه عداته

وهم والله ما عاشوا إلا لأجل الدين ، أما نحن اليوم فقد بدلنا ذلك ، فأصبحنا نعيش من أجل الدنيا الفانية ،هذا يقتل أخاه على قيراط ، وهذا على حائط ، وهذا على كلمة . . . . . .

لإسلامي أعيش أنا ... لتوحيدي وذا ديني

لإسلامي ولو حتى ... إلى الجدران شدوني

لإسلامي ولو حتى ... إلى النيران زفوني

لإسلامي لإسلامي ... ولو في السوق باعوني

ولولا خشية الإطالة لذكرت مزيدا من سيرهم ـ رضوان الله عليهم ـ فإن في سيرهم تزكية للنفوس وأختم قولي بقول القائل :

---

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (١٣/ ٣٨، ٣٩) وكذلك « تهذيب التهذيب » (١/ ١٣، ١٤) وكتابنا « الأخبار من تراجم الأخيار » (٢/ ١٥٩) .

«ولئن فاتني من الناس الثناء الجميل في العاجلة ، فحسبي ما أرجو من الثواب الجزيل في الآخرة وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

وما أبرئ نفســـي إنني بشـــر أسهو وأخطئ ما لم يحمني القدر

وكتبه

خادم الكتاب والسنة

أبو عمر محمد عبد الملك الزغبي

المنصورة

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة